الرجَّالة العوانس

الرجَّالة العوانس

لماذا لا يتزوج الرجال ؟

شادي عبد السلام

دار إيزيس للفنون والنشر

الرجَّالة العوانس

(لماذا لا يتزوج الرجال ؟)

شادي عبد السلام

دار إيزيس للفنون والنشر

الناشر : دار إيزيس للفنون والنشر

العنوان : القاهرة - 2 أ شارع طه حسين - الزمالك

هاتف : 27361361(02)

محمول : 0112695195

بريد إلكتروني : dar_isis@yahoo.com

المدير العام : سوزان التميمي

تصميم الغلاف : رحاب العمري

الإعداد الفني والتنفيذ : الكتبي لأعمال النشر والمطبوعات

العنوان :33 شارع عرابي - التوفيقية - القاهرة

بريد إلكتروني : alkotby11@yahoo.com

رقم الإيداع :2012/4268

الترقيم الدولي : 978-977 - 6367-35-7

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2012

عبدالسلام ، شادي

الرجالة العوانس : لماذا لا يتزوج الرجال؟؟ / شادي عبدالسلام .

ط 1

القاهرة : دار إيزيس للفنون والنشر ، 2012

200 ص ، 20 سم

تدمك 9789776367357

1- الزواج - مقالات ومحاضرات

2- الرجال العزاب

أ- العنوان

301،4204

رقم الإيداع/ 4268 التاريخ 2012/2/14

الإهـداء

إلى أُمِّي .. وزوجتي
.. وأختي .. وابنتي ..
وزميلتي .. وجارتي
.. وصديقتي على
الفيسبوك. وكُل مَن
تنتمي لـ «تاء التأنيث»
المُستبسلة ، ونون النسوة
المكافحة ، وجمع المُؤَنَّث
السالم .... في مواجهة
حروف الأغلبية
الذكورية وجمع المُذَكَّر
الذي فسد!

بـرغـم كُـل شـيء ...

.... ورغم أن هذا الكتاب يهاجم الرجل أكثر مما يدافع عن المرأة؛ عملاً بمبدأ نابليون بونابرت ومانويل جوزيه؛ أن الهجوم خير وسيلة للدفاع.

ورغم أن تصرُّفي هذا قد يغضب الرجال ويُحَيِّر النساء، ويطرح تساؤلاً بديهيًّا عن سر هذا الاندفاع الهجومي الساحق الماحق الصاعق،

ورغم أن المرأة المصرية شأنها شأن الرجل؛ لها ما لها وعليها ما عليها، وأنها في حالات زوجية أو عاطفية عديدة قد تكون الجاني لا المجني عليها،

ورغم أن الانحدار الأخلاقي والانفلات السلوكي قد طال البنت كما طال الولد،

ورغم أن الموضوعية تقتضي إبراز الرأي والرأي الآخر؛

فإنك عزيزي القارئ - أو يجدُر بي أن أقول عزيزتي القارئة، لشكِّي في إقبال الرجال على كتاب يحمل مثل هذا العنوان! — لن تجد شيئًا من ذلك هنا.

فأنا لا ألعب هنا دور القاضي؛ بل أقوم بدور المحامي؛ مُمسكًا

بتلابيب الخصم، فاضحًا ثغرات دفوعه، مُفَنِّدًا كل ألاعيبه ... مُقسمًا ألاَّ أتركه يفلت بجرائمه دون أن يُعاقَب بالتجريس !

وحسبي أن تراث الإنسانية الأدبي والفلسفي قد دأب كله — بمعرفة الرجل — على السخرية من المرأة ووصفها بما ليس فيها، أو بما فيها وفيه في آنٍ واحد.

وحسبي أن المرأة في بلدنا تتعرَّض لضغوط لا نهاية لها، بدءًا من التفرقة في المعاملة في بيت الأسرة، ومرورًا بحصرها وحصارها في نطاق تحكمه الغريزة؛ سواءً بالتحرُّش الجنسي بها في الشارع والأماكن العامة، أو بالوصاية الدينية المظهرية التي — كذلك - لا ترى فيها ومنها إلا جسدًا ينبغي مُداراته أو التصرُّف فيه ولو بالتخلُّص منه، وانتهاءً بمأساة الزواج والطلاق أو الشروع في كليهما.

وحسبي أن آلاف الكتب بيعت أو تُباع أو سوف تُباع، ولا هَمَّ لها سوى السخرية من المرأة، والتشنيع عليها، وحبسها في إطار مُخْزٍ رخيص.

وحسبي الله ونعم الوكيل!

تحرير المرأة ..

والرجل ..

والقرد !

يُحكى أن أحدهم قد أتى بخمسة قرود وحَبَسهم في قفص... ثم علَّق في منتصف القفص حزمة موز، ووضع تحتها سُلَّمًا.

وبعد لحظات؛ سارع أحد القرود الخمسة إلى اعتلاء السُلَّم في محاولة للوصول للموز المُعلَّق. وما أن اقتربت يده منه؛ حتى انطلق رشاش من الماء البارد على القردة الأربعة الباقين وأفزعهم. فلم يصل القرد إلى الموز بعد أن انزعج من صراخ زملائه.

وبعد دقائق؛ حاول قرد آخر أن يعيد التجربة. وفي اللحظة الحاسمة قبيل التقاط الموز؛ تكرر رش القردة الأربعة الباقين بالماء البارد؛ ليتوقف القرد عن مسعاه. تناوب القردة الخمسة على محاولة الارتقاء، وكانت النتيجة واحدة في كل مرة.

وبعد فترة؛ لوحظ أنه كلما هَمَّ قرد من القرود أن يعتلي السُلَّم للظفر بالموز، قامت المجموعة بمنعه وضربه خوفًا من الماء البارد، ودون أن يقوم أحد برش الماء.

تم إخراج أحد القرود من القفص، وإحلال قرد آخر مكانه؛ لم يعاصر اقتران الوصول للموز برش الماء البارد. وسرعان ما تسلَّق القرد الجديد السُلَّم لقطف الموز؛ فهاجمته القردة المرعوبة من الماء البارد ومنعته. كرر المحاولة،

ونال الجزاء نفسه.

خرج قرد ثان، ودخل قرد جديد. وتكرر ما حدث مع سلفه، بل وشاركهم آخر قرد مضروب؛ على الرغم من أنه لم يعاصر رش الماء المثلج، ولا يدري لماذا ضربوه في السابق!

خرج القرد الثالث والرابع والخامس، وحل محلهم آخرون، حتى صار القردة الخمسة الموجودون في القفص ممن لم يشهدوا اقتران السعي خلف الموز برش الماء المثلج على الباقين.

وفي كل مرحلة؛ كان القرد الجديد يشارك زملاءه في ضرب الأجدد منه! وفي نهاية الأمر؛ أصبح الصعود على السُلَّم مقرونًا بضرب صاحب المحاولة حتى يتوب وينوب عن فعلته.

لم تعُد القردة تعي سببًا منطقيًّا وراء ضرب الزملاء، لكنهم يضربون كما ضُربوا، ويفعلون كما فُعِل بهم. ولم يكلف أحدهم نفسه بالسؤال: لـيـــــه؟؟

لَشَدُّ ما يُشبه بعض الناس كل القردة!

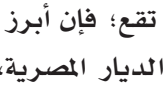

ربما أكون قد قرأت في حياتي مئات المقالات، واستمعت إلى عشرات الحوارات؛ تهاجم أفكار قاسم أمين بشأن تحرير المرأة. وأحلق شنبك – لأني ماعنديش واحد – إن كان واحدٌ من هؤلاء قد قرأ حرفًا واحدًا لقاسم أمين!

ذلك الرجل الذي شَوَّه سُمعته الرجال، وخذلته وخَيَّبَتْ أمله النساء. ذلك الرجل الذي تعاقبت عليه أجيال لا تدري عنه شيئًا. لم تُعانِ من رش الماء البارد، لكنها تُمْعِن في الضرب والاعتداء بكل ما

أوتيت من صلابة الأفكار.

وصدق المثل العربي حين قال: إن نصف العلم أخطر من الجهل، فما بالك بمثقال ذرة من العلم تُبنَى عليها آراء الملايين من القرود البشرية!

هذا الفصل عنه وله ومن خلاله؛ عن قاسم أمين، وعن القرد، وعن الرجل، إن كان هناك فارق واضح بين الاثنين سالفي الذكر!

توفي قاسم أمين دون الخامسة والأربعين، وتحديدًا في ربيع عام 1908، وقبل أن يشهد بنفسه ثمرة جهوده مع الرواد الأوائل لإنشاء الجامعة المصرية في ديسمبر من العام نفسه.

ورغم عمره القصير؛ فإنه قام بتأليف عدد من الكتب، أبرزها «المصريون» في عام 1894، و«تحرير المرأة» في عام 1899، و«المرأة الجديدة» في عام 1901.

ولأن الطيور على أشكالها تقع؛ فإن أبرز أصدقاء قاسم أمين هم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وأحمد لطفي السيد، وحافظ إبراهيم ... لكن يظل أقرب أصدقائه إلى نفسه هو سعد زغلول، وقد قام بإهدائه كتاب «المرأة الجديدة»؛ قائلاً: "إلى صديقي سعد زغلول، فيك وجدت قلبًا يحب، وعقلاً يفكر، وإرادة تعمل".

ولعل صداقته بسعد زغلول تجعلنا نحن مَن يفكر، ثم نصل إلى نقطة التقاء واضحة للأعمى. كلاهما كان ينادي بالحرية. بحث زغلول عن حرية الوطن واستقلاله، وقام الشعب من ورائه بثورة جبارة في عام 1919، بينما سبقه صديقه بالبحث عن حرية المرأة التي هي جزء من

حرية الوطن؛ فلا حرية لبلد نصفه مقيد بأغلال الجهل والتخلف.

جاء قاسم أمين ينادي بتحرير المرأة؛ داعيًا إلى تعليمها وتحرير إرادتها، مؤيدًا انخراطها في المجتمع، مؤكدًا على الفارق بين الحجاب والاحتجاب، وبين المُحَجَّبة والمَحْجُوبة[1] ، تاركًا لنا الخلط المعيب بين السفور والعري!

ربما يعد كتاب «تحرير المرأة» أكثر الكتب المصرية إثارة للجدل في القرن الماضي. وقد انبرى له مئات المحسوبين على الثقافة والدين في حينها بالهجوم الحاد. وعندما رحل هؤلاء عن دنيانا، ودخلت القفص بدلاً منهم أجيال لم تعاصره، لم تلبث أن سارت على هُداهم؛ دون أن تفطن إلى العلاقة بين الموز والسُلَّم والماء البارد وقاسم أمين وتحرير المرأة وتحرير الوطن ... والقرد!

جَرِّب أن تدخل على مُحَرِّك البحث جوجل - وسأطلب منك كثيرًا على امتداد الفصول أن تفعل – وبادر بكتابة اسم قاسم أمين. ستجد ألوف الصفحات التي تهاجمه، وتصفه بالكفر والزندقة والفسق، وتؤكد في ثقة أن ذنب الأمة الإسلامية كلها في رقبته، وأنه كُلَّما ظهرت راقصة هنا أو مُغَنية هناك، مايوه هنا أو فستان بدون حمالات هناك؛ فقد نال ذنبهن فوق ذنوبه إلى يوم الدين!

ومن غرائب الأمور أن يحدث ذلك؛ رغم أن زوجة قاسم أمين شخصيًا كانت محجبة (!!)، ورغم أنه ما نادى إلا بالاكتفاء بالحجاب

(1) في حقيقة الأمر؛ لا توجد فوارق لغوية جوهرية !! ويبقى الفارق في فهمنا نحن لها، ونؤجل شرح ذلك إلى الفصل الثامن!

الشرعي الذي يُظْهِر وجه المرأة وكَفَّيْها؛ دون أن يحول بينها وبين الاختلاط في المجتمع. ما نادى إلا بالاحتشام دون احتجاب عن المجتمع. ما نادى إلا بالسفور، وما السفور إلا ظهور الوجه للعامة. ولا علاقة على الإطلاق بين السفور والعري!

وأبدأ هنا باستعراض فقرات – بين أقواس – مما كتبه قاسم أمين في مجموعة من كتبه بشأن تحرير المرأة التي نالت حُريتها بأسلوب مُعْوَجٍّ؛ في ظل رجال لم يفلحوا في الفصل بين المُغالاة في التحرر والتشدُّد في التطرف.

وبعد أن ننتهي من قاسم أمين وتحرير المرأة في مطلع القرن العشرين؛ نبتهل إلى الله أن يُقَيِّض لنا مُفكرًا بقامته وقيمته، ينجح في تحرير الرجل في مطلع الحادي ... وربنا الهادي!

ولا يتعجل أحد. فالأذهل لم يأت بعد! [2]

"سُئل ح. بك: ما رأيك في كتاب تحرير المرأة؟ فأجاب: رديء. هل قرأته ؟ لا .. أما يجب أن تطَّلع عليه قبل الحُكْم برداءته؟ .. ما قرأت ولا أقرأ كتابًا يُخالف رأيي!".

ياه ... إن ح. بك هذا رجل لكل العصور. لا يقرأ حرفًا، ويعشق النميمة، ويبث الشائعات ويستقبلها، كأحسن ما يكون الاستقبال والبث!

"إن نساء القرى المصرية - مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه

(2) من المذهل أن نكتشف أن فقرات عديدة من كتاب تحرير المرأة هي من تأليف الشيخ محمد عبده، وهو ما أشار إليه عدد من المؤرخين. وعلى كل حال أضع الفقرات من كتب قاسم أمين بين قوسين، ثم يأتي تعليقي لاحقًا عليها.

الاختلاط في أوروبا - أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات. إن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة".

والعكس صحيح. وهذه حقيقة لمستها بنفسي. بدأْتُ تعليمي في مدرسة لغات إنجليزية للأولاد. ولأن في أسرتي لا وجود للبنات، فَهُنَّ كائنات معادية أو غريبة أو مُبهمة أو جميلة. لا نعرف عنهُنَّ شيئًا البَتَّة. وعندما انتقلْتُ للمدرسة الألمانية في الصف الخامس الابتدائي، عَرَفْتُ البنت عن قرب، مثلها مثلي. فقلَّ الخوف وسكنت الحيرة وهدأت النفس.

"إن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشُّف للنساء؛ إلى درجة يصعب معها أن تتصوَّن المرأة من التعرُّض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء. وقد تغالينا نحن في طلب التحجُّب والتحرُّج من ظهور النساء لأعين الرجل؛ حتى صيَّرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعًا من المُقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التي أُعدَّت لها بمُقتضى الفطرة الإنسانية. وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعو إليه".

كلام رائع لا تشوبه شائبة. ياه. كانت أيام. عندما كان الحجاب الشرعي هو الوسط بين طرفين. رحمه الله، ورحمنا !

"فلأن النساء، في كل بلد، يُقدَّرْن بنصف سكانه على الأقل، فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة، وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى. ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل؛ مثل الغربية، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة

والتجارة والصناعة؛ إلا جهلها وإهمال تربيتها. ولو أُخِذَ بيدها إلى مجتمع الأحياء، ووُجِّهَتْ عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيوية، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية، لصارت نفسًا حيَّة فعَّالة تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هي اليوم، عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها، ولكان ذلك خيرًا لوطنها، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه. وإنما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم، فيدعه في صندوق، ويكتفي بأن يفتح صندوقه كل يوم؛ ليتمتع برؤية الذهب، ولو عرف لاستعمله، وانتفع منه، وضاعفه في سنين قليلة ".

ربما تبدو هذه من قبيل الأفكار العادية الأقرب ما تكون إلى السذاجة؛ بمنظورنا في مطلع العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، لكننا يجب أن نُقَدِّر أن هذه الآراء قد صاغها صاحبها من 112 سنة. وعندما تَفَوَّه بها وبغيرها لأول مرة، كادوا يقيمون عليه الحد! ومن المُحزن حقًّا؛ أنه في الوقت الذي شكا فيه قاسم أمين آنذاك من جهل نصف المجتمع بلا استخدام للمدارك العقلية، نجد أنفسنا اليوم نشكو من جهل النصفين معًا، وليس للمجتمع نصف ثالث!

"الحجاب الفتنة: رأيتُ يومًا في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة، طويلة القامة ممتلئة الجسم، عُمْرها بين العشرين والثلاثين، في وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع، وملاءة مُنطبقة على جسمها انطباقًا تامًّا، الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت

ستار الملاءة باعتدال جميل، والقسم الأعلى غير مستور، وإنما الملاءة مشبوكة في رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق، أقل عرضًا من الوجه، تحجب فمها وذقنها حجابًا لطيفًا شفافًا، كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة. كانت تمشي خطوات مُرتَّبة يهتز معها جسمها مائجًا، كما تفعل الراقصة على المسرح. وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك، وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام ... وبالإجمال كان مجموعها تحريضًا مُهَيِّجًا للحواس"!

وكأنه يسخر من الحجاب الحالي مُستشرفًا المستقبل؛ مُتَهَكِّمًا على الحجاب الذي لا يستر إلا أسوأ ما في الفتاة وهو شعرها المنكوش الخشن؛ تاركًا تفاصيل الجسد تحت رحمة البادي والجينز الملتصقَيْن بكل أعضائها، ما ظهر منها وما بطن!

"المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع المؤقت، هم تابعون لقانون الحب والأمانة والإخلاص لنسائهم وأولادهم، قانون أعلى من مبادئ حب الذات".

واللذات يا قاسم بك ...!

"الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يومًا أو شهرًا أو سنة أو عدة سنين، حيازة تنتهي بمجرد إرادة الرجل، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب، ويقول لها: اخرجي!"

وقد استوقفني في أيامنا السوداء هذه، أن تقدَّم أحدهم لإحداهن؛

وكان مُتهيِّبًا من فكرة الزواج؛ مُتخوِّفًا من اختلاف الطبائع؛ فأخبر والدتها في صدق يُشْكَر عليه: إن تزوجنا، لا أعدك أن يستمر الزواج أكثر من عامين أو ثلاثة على الأكثر! إن بائع الثلاجات الذي اشترت منه أمي ثلاجتها الشارب، قد أعطاها ضمانًا سبع سنوات. لَكَم تتمنى الفتاة لو يعاملها خطيبها معاملة بائع الثلاجات لأمي!

"كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيُّش منها إن كانت فقيرة؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعها؟".[3]

من جديد؛ أناشد القارئ أن يلحظ الفارق بين مَحْجُوبة أي متوارية، ومُحَجَّبَة أي محتشمة. يتساءل الكاتب بكل المنطق والعقل عن مصير المرأة التي لا يحق لها أن تكشف عن وجهها وتنزل إلى العمل، يتساءل كيف لها أن تعيش إن كانت بلا عائل ولا مال. ولم يَقُلْ قط أن على المرأة إن أرادت النزول إلى سوق العمل أن ترتدي الميني جوب والبنطلون الإسترتش. ما قالشي يا مفتري!

"عجبًا ! لمَ لَمْ تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن؟ هل اعتُبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة، واعتُبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحُكم على هواه، واعتُبرت المرأة أقوى منه في كل ذلك، حتى أُبيحَ للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء، مهما كان لهم من الحُسن والجمال. ومُنعت النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعًا مُطلقًا، خوفًا

(3) جاءت هذه الفقرة في باب حجاب النساء من الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، الجزء الثاني: في الكتابات الاجتماعية، من إصدارات دار الشروق، صفحة 106

أن ينفلت زمام هوى النفس من سُلطة عقل الرجل، فيسقط في الفتنة بأية امرأة تَعَرَّضَتْ له، مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق؟! إن زعم زاعم صحَّة هذا الاعتبار، رأينا هذا اعترافًا منه بأن المرأة أكمل استعدادًا من الرجل، فلمَ توضع حينئذ تحت عبوديته في كل حال ؟؟".[4]

هل لديكم إجابة ؟؟؟

"من احتقار الرجل للمرأة أن يُطَلِّق الرجل زوجته بلا سبب. من احتقار المرأة أن يُعيِّن لها محافظًا على عرضها؛ أغا أو خادمًا يراقبها ويصحبها أينما تتوجه. من احتقار المرأة أن يسجنها في منزل، ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة على النعش إلى القبر. من احتقار المرأة أن يُحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في أي شيء يتعلق بها، فليس لها رأي في الأعمال، ولا فكر في المشارب، ولا ذوق في الفنون، ولا قَدَم في المنافع العامة، ولا مقام في الاعتقادات الدينية، وليس لها فضيلة وطنية".

إنها إحدى الحالات النادرة التي يزامل فيها الاحتقار الاحتكار!

"ربما يقول قائل: إن ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء أكثر مما كنا نسمعه سابقًا، وإن الإشاعات عن الفساد أشد انتشارًا، بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلاً، ولا منشأ لذلك إلا رقة الحجاب. فالحالة القديمة، على ما

(4) جاءت هذه الفقرة في باب حجاب النساء من الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، الجزء الثاني: في الكتابات الاجتماعية، من إصدارات دار الشروق، صفحة 108، 109

فيها، كانت أصْوَن للأعراض، وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء. فنجيب عن ذلك، بأننا لا ننكر أن بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معًا، وجدت سبيلاً من تخفيف الحجاب إلى تعارف بعضها ببعض، وإتيان ما تميل إليه من المنكر، بل نزيد عليه أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها إلى الآن – والنفوس على ما هي عليه – لَعَمَّت البلوى وازداد الفساد انتشارًا. غير أن السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب؛ بل هو راجع إلى أمور كثيرة يجمعها: الجهل وسوء التربية".

على كل حال؛ لقد حَذَّر قاسم أمين من عاقبة الحرية وتخفيف القيود إن لم يلازمهما تعليم وتربية. وبكل أسف، حدث ما نَبَّه إليه الرجل. وليس أسوأ من التحايل مذهبًا. فقد احتارت النساء بمعرفة الرجال وتحت إشرافهم في التَنَقُّل بين جونلة وبنطلون. قالوا إن الجونلة لا تصف تفاصيل الجسد كالبنطلون، لكنها أعاقت الحركة، فعملوا لها فتحة من الخلف تُعَرِّي الساق حتى الفخذ، ثم ارتفعت الجونلات وصارت ميني وميكرو جيبات، وانتفى الغرض من الوصف التفصيلي وصولاً إلى البث المباشر وبالألوان! ثم قالوا دعونا من الجونلة التي تسارع صاحبات النفوس الضعيفة إلى تقصيرها، وليكن هو البنطلون يستر السيقان ويحجبها، فما كان منهم – وأعنى منهم لا منهن، لأن الموضة صنيعة الرجال! – إلا أن قاموا بتقليص محيطه فأخذ في الانكماش الصاعق؛ حتى صار البنطلون مع الساق والفخذ قطعية واحدة؛ تحتاج منك إلى التركيز كي تميز بينهم! وبكل وضوح نؤكد أن النساء يلبسن ما يفرضه عليهن الرجال. فلم تكن المرأة حُرَّة في حبسها، ولم تصبح حُرَّة في عُرْيها، بل صارت أكثر عبودية لجسدها ... وللرجل!

"يجب أن يُفهم أن الطلاق إنما هو عمل يُقصد به رفع قيد الزواج، وهذا يفرض حتمًا وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة في إنه إنما يريد الانفصال من زوجته. وإن لُمريد الإصلاح أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت؛ خصوصًا إذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عامًا. فلمَ لا يجوز؛ مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد؛ أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الإشهاد شرط في صحة الطلاق، كما هو شرط في صحة الزواج، كما تشير إليه الآية الواردة في سورة الطلاق؛ حيث جاء في آخرها ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾؟ أليس هذا أمرًا صريحًا بالإشهاد؛ يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق؟ أليس قصد الشارع (المُشَرِّع) أن يكون للطلاق واقعة حال مشهودة لدى العموم ليسهل إثباته؟ لمَ لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق رُكن بدونه لا يكون الطلاق صحيحًا؟ نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله، ورعاية لمصلحة الناس، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطَّلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظامًا لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة، كما هو شأننا اليوم ... بل إن أرادت الحكومة أن تفعل خيرًا للأمة؛ فعليها أن تضع نظامًا للطلاق على الوجه الآتي: المادة الأولى: كل زوج يريد أن يُطَلِّق زوجته، عليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه، ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته. المادة الثانية: يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنة؛ مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله،

وينصحه، ويبيِّن له تبعة الأمر الذي سيقدم عليه، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع. المادة الثالثة: إذا أصر الزوج، بعد مُضيّ الأسبوع، على نية الطلاق، فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حَكَمًا من أهل الزوج وحَكَمًا من أهل الزوجة، أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما. المادة الرابعة: إذا لم ينجح الحَكَمان في الإصلاح بين الزوجين، فعليهما أن يُقَدِّما تقريرًا للقاضي أو المأذون، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج في الطلاق. المادة الخامسة: لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون، وبحضور شاهدين، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية، وليس في هذا تعدٍّ على حق من حقوق الزوج؛ وإنما هو وسيلة للتروي والتبصُّر، اتُّخِذَتْ لمصلحة المرأة وأولادها؛ بل ولمصلحة الزوج نفسه! إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضي، أدعى إلى تضييق دائرته، وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج". [5]

أحسبها فكرة رائعة وعبقرية وممكنة وضرورية وتتفق كل الاتفاق مع تعاليم الإسلام وروح العقيدة. وأزيد على ذلك، فأقول: إن علاقة الرجل بالمرأة في عصرنا هذا، تمر بمراحل متعددة، تبدأ بالتعارف بغرض الارتباط؛ مرورًا بقراءة الفاتحة، ثم الخطوبة والاستعداد للزواج، ثم عقد القران وإتمام الزواج. وإن ظن الرجل في أية مرحلة من تلك المراحل أنه يهزل وأن بوادر الجدية لا تلوح إلا بالدبلة في إصبعه، وأن الجدية نفسها لا تأتي إلا بعد عقد القران؛ إن ظن هو ذلك؛ فظني أنا أنه مغفل! ولن أقول له إن بنات الناس ليست لعبة؛ كي يحل ضيفًا على منزل أهلها ويمكث حتى ينتصف الليل بلا أدنى مراعاة للأصول

(5) جاءت هذه الفقرة في باب الطلاق من الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، الجزء الثاني: في الكتابات الاجتماعية، من إصدارات دار الشروق، صفحة 120، 121.

والأخلاق والدين. ولن أضيف إلى ذلك أن الرجل الذي يقول ما لا يفعل ويقصد ما لا يقول هو أبعد ما يكون عن الرجولة. ولن أكمل على ذلك بأن الرجل هو ذلك الذي يتخذ التعارف على أنه تحديد وجْهَة، وقراءة الفاتحة على أنها ربط مصيرين، والخطوبة على أنها خطوة أخيرة وبديهية في طريق الزواج. لا، لا، لا. كل هذا لن أذكره إطلاقًا. فقط أشير إلى ما هو أبسط من ذلك كله؛ فليس الطلاق وحده هو الذي يلزمه تعقيد وتصعيب يردع المُتلاعب بزوجته؛ بل إن الانفصال - في كل مراحل العلاقة بين الرجل والمرأة - يلزمه رادع أخلاقي يحول بين الرجل وبين ما يحدث في زماننا هذا. لا يوجد قانون يحاسب الرجل على التلاعب وعلى اللا مسئولية وعلى الهزل. ولا يصح قط أن نخلط بين الذكورة والرجولة، في هذا الزمان الذي يفارق فيه الزوج زوجته والخطيب خطيبته والحبيب حبيبته برسالة على المحمول، أو إيميل على الياهو، أو كلمتين على الفيسبوك. والذي نفسي بيده، إن مثل هذا الذَّكَر لا يستحق سوى العنوسة المؤبدة، أو أن يلقى مصير سمير صبري في فيلم البحث عن فضيحة، وحكايات واحد صاحبي ما تعرفهوش!

"أخلاق جديدة عند الشبان: علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مُفَصَّلة عن البنات اللاتي يرشحون أنفسهم لخطبتهن؛ وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن؛ فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن، وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها، وسن والدها والأمراض التي يكون مصابًا بها، وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته إلخ ... معلومات لا يفكر في جمعها أشد المرابين احتياطًا، إذا أقرض مبلغًا جسيمًا بدون تأمين"!

يا قاسم بك! لسنا بعيدين عن مثل ذلك. وإن حالة الرعب التي تسيطر على شُبَّان اليوم، عندما يتم دفعهم دفعًا إلى تهلكة الارتباط وجحيم الزواج ونار المسئولية، لَتظن معها أنه لم يكد يفعل إلا بعد ضمانات عدة بشأن الميزات التي قد يحظى بها، وإلا بعد أن يُقَدِّم له أهل العروس تأمينًا ضد أخطار الزواج وآثاره على صحته النفسية. لقد شاهدت بعيني عائلة ترتضي لابنتها الشابة البكر الجميلة الغنية المثقفة الحاصلة على أعلى الشهادات، الارتباط بعريس لا يضاهيها في أي مضمار، واشترط أهله على أهلها أن يقوموا بشراء شقة الزوجية لعدم قدرتهم على الإتيان بشقة تليق بمقام العروس فضلاً عن أهلها. وافق الأهل على مضض تحت شعار ما باليد حيلة. وقبل الخطوبة بأسبوع؛ طالب أهله بكتابة الشقة باسم ابنهم؛ لأن كرامته لا تسمح له أن يسكن في شقة باسم زوجته! هذا هو ما يُطلق عليه: بنشتري راااااااجل!

"وبديهي أن في تعدُّد الزوجات احتقارًا شديدًا للمرأة؛ لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها في زوجها امرأة أخرى، كما أنك لا تجد رجلاً يقبل أن يشاركه غيره في محبة امرأته. وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة، كما أنه طبيعي للرجل. وعلى كل حال؛ فكل امرأة تحترم نفسها؛ تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بأخرى. والذي يطيل البحث في النصوص القرآنية التي وردت في تعدُّد الزوجات؛ يجد أنها تحتوي إباحة وحظرًا في آن واحد، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾. وقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء

وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ومن الآيتين يتضح أن المُشَرِّع علَّق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل. ثم صرح بأن العدل غير مستطاع. فمَن ذا الذي يمكنه ألاَّ يخاف عدم العدل، مع ما تقرر من أن العدل غير مُستطاع؟ وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمُحال؟ أظن أن كل بشر إذا أراد الشروع في عمل غير مُستطاع يخاف؛ بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع في ضده. ولو أن ناظرًا في الآيتين أخذ منهما الحُكْم بتحريم الجمع بين الزوجات، لما كان حُكْمه هذا بعيدًا عن معناهما، لولا أن السُنَّة والعمل جاءا بما يقتضي الإباحة في الجملة".[6]

هذه وجهة نظر خاصة جدًّا، أوافق عليها بنسبة مئة وواحد في المئة. فلست مع الرأي القائل بأن تعدُّد الزوجات قد يكون حلًّا لمشكلة عنوسة المرأة؛ لأنه لم يُخلق بعد ذلك الرجل الذي يرضى بزوجة تمارس علاقة جنسية مع غيره، ولا في أشد المجتمعات انحلالاً، وبالمثل لا يجب أن يضغط المجتمع – الذي هو الرجل – على المرأة لترضى بممارسة رجلها للعلاقة الحميمة مع أخرى؛ وهو ما يُعَدُّ نوعًا من التفريط في ملكية تخصها.

إن الحرية هي إباحة حقوق متساوية لكل الأطراف، لكننا هنا أمام تلك الحرية - الـ customized التفصيل - التي تبيح للرجل الزواج المتكرر بكافة أشكاله من العُرفي والمتعة؛ مرورًا بالمسيار؛ وصولاً إلى الزنا المُقنَّع بأنواعه المستحدثة؛ مثل:

زواج الفريند الذي يتفق فيه الطرفان على كونهم أصدقاء أو زملاء

(6) المرجع السابق نفسه، صفحة 83، 85، 86 .

في الجامعة أو العمل؛ ما عدا دقائق المعاشرة الزوجية التي يتحول فيها الزميل إلى زوج والزميلة إلى زوجة؛ على أن يعودا إلى الصداقة بعد انتهاء المعاشرة مباشرة، وذلك حتى يحين موعد المعاشرة التالية، وهكذا!

وزواج السفاري الذي يسافر فيه الزوجان في رحلة، فيتم الاتفاق بينهما على الزواج متى بدأت الرحلة، ويستمر الزواج طوال فترة السفر، وفور انتهاء الرحلة يتم الطلاق وتنتهي المعاشرة الجنسية!

أما الزواج السياحي؛ فينتعش خلال إجازات العرب في موسم الصيف، ولا تزيد مدته على شهر يتمتع فيه الرجل بفتاته طوال فترة إقامته؛ على أن يتم الطلاق مصحوبًا بشيك بنكي قابل للدفع![7]

وهناك أنواع زيجات أقصر مدة؛ مثل زواج الوشم الذي بمقتضاه يتم الزواج على يد دقَّاق لا مأذون؛ وهو ذلك الشخص الذي يدق نصف الوشم على ذراع العريس، ونصفه الآخر على ذراع العروس، ثم يلامس كل منهما ذراع الآخر؛ فتكتمل صورة الوشم وتكتمل مراسم الزواج. وبعد انتهاء الممارسة الجنسية؛ يقوم الدقَّاق مشكورًا بمحو صورة الوشم من فوق ذراعي العروسين، مُعلنًا زوال النقوش الزوجية وانتهاء الطقوس الفنية التجريدية!

وكذلك زواج الكاسيت الذي يقوم فيه الزوجان بتسجيل عبارات

(7) ارتفعت نسبة الإصابة بالأمراض الجنسية بين فتيات الحوامدية؛ بسبب تكرار الزواج من أثرياء عرب. وكشفت دراسة بعنوان «العبودية المعاصرة» عن قدوم نسبة كبيرة من العرب للسياحة الجنسية، وأن هناك ما يسمى بعقود زواج باليومية! وأن شبكة الدعارة المقنعة تبدأ بسائق التاكسي في المطار الذي يعرض توفير عروس صغيرة خلال فترة إقامة السائح ، فيتم تأجير الفتيات مقابل سمسرة يتقاسمها السائق والسمسار وأهل العروس. وقد تتزوج الفتاة أكثر من مرة خلال الموسم السياحي الواحد!!

لماذا لا يتزوج الرجال فـي مصر؟

الزواج على بداية الوجه الأول للشريط، وفي نهاية الوجه الثاني يتم تسجيل عبارة الطلاق. ويبدأ الزواج بتشغيل الشريط، ويظل الرجل يعاشر فتاته طوال دوران الشريط، وما أن تحين جملة الطلاق في ختامه حتى يتوقف الطرفان عن الجماع المُباح وتنتهي غنوة الزواج السعيد. وتعتمد مدة الزواج على سعة شريط الكاسيت ما بين ستين إلى تسعين دقيقة، وما إذا كان التسجيل لونج بلاي، ليطيل من عمر العلاقة الأبدية!

وزواج الرمل الذي تعرفه شواطئ مصر السياحية؛ فيكتب الزوجان اسميهما على الرمال، ويختلي كل منهما بالآخر. وبينما المعاشرة على أشدها يلقي أحدهما نظرة على الأسماء المنقوشة على الرمال، فإذا ما جاءت موجة بحرية تمحو الأسامي، يكون الطلاق قد وقع بمشيئة الله الذي سيَّر الرياح وأنشأ المد والجزر ويخلق ما لا تعلمون!

إن مثل هذه الحرية الممنوحة للرجل في التحايل على الشرع والدين - والتمتع بأخريات بخلاف زوجته الشرعية - لهي حرية تتجاوز فكرة الإباحة هبوطًا إلى مفهوم الإباحية!

إنها حرية سجينة داخل قيود الانحلال وأغلال التسيُّب!

نأخذ هُدنة من أفكار قاسم أمين ومحمد عبده على وعد بالعودة إليهما قبل نهاية الفصل، ونبحث عن إجابة مُلحَّة لسؤال متكرر ... فلأن الزواج قد اختُزل معناه وضاعت معالمه؛ فقد حان وقت الإجابة عن السؤال الحرج: لماذا لا يتزوج الرجال حاليًّا في مصر؟

لكي نُجيب عن هذا السؤال؛ علينا أن نضع الزواج في معادلة حسابية تقول: عبء المسئولية+ المتعة الجنسية+ الرغبة في الاستقلال = اتزانًا نفسيًّا يُفْضِي إلى رغبة الرجل والمرأة في الزواج. هذه معادلة حسابية لم تختل قط طوال قرون مضت.

ودعونا نجتزئ من المعادلة ذلك الجانب الخاص بالمتعة الجنسية، فنقول إن الرجل – أيام قاسم أمين وما بعد قاسم أمين وصولاً إلى ثمانينيات القرن العشرين – كان محدود الفرص فيما يتعلق بإشباع رغباته الجنسية خارج نطاق الزواج.

في البدء كانت هناك بيوت الدعارة لمَن يملك المال، ثم كانت هناك الجرسونيرة - تلك العوامات الشهيرة على النيل-، ثم الشقق المفروشة، ثم السيارات في طريق المطار والمقطم. وما يجمع هذه السلوكيات - في العقود المتفاوتة من القرن الماضي - هو حتمية الثراء وشجاعة الظهور

بمظهر الفاسد الفاجر أمام الآخرين. فلكي تذهب إلى بيت دعارة؛ يراك المارة ويتعرف عليك سكان البيت ورواده. ولكي تذهب إلى الكباريه؛ يراك العامة، ويتعرف عليك زبائن المحل. ولكي تشبع متعتك الجنسية في بيت دعارة أو شقة مفروشة أو جرسونيرة أو حتى سيارة؛ فأنت تكشف عن وجهك القبيح أمام شريكتك في العلاقة الجنسية ... أنت «متشاف»!

وكثير من الرجال كانوا يحسبونها ويجدون أن الزواج أقل تكلفة على المدى الطويل!

فما الذي اختلف في العقدين الأخيرين، وأخرج المتعة الجنسية من معادلة الزواج الحسابية، ورجَّح كفة عنوسة الرجل على تحمل عبء المسئولية وتبعاتها؟

الإجابة تجدونها فيما يلي من الإحصائيات المفزعة والأرقام المرعبة والشواهد المذهلة، ويجمع بينها كلها أمر بسيط جدًّا: بساطة التكلفة وعدم الحاجة إلى شجاعة الكشف عن الوجه القبيح، فكله في السر والعادة سرية، وأنت فُل الفُل في العلن وبتاع ربنا ومتدين، ويستخسرك المجتمع في البقاء دون زواج حتى حينه. يستخسرك ويستغربك ويستعجبك، وإن عُرف السبب بَطُل العجب!

أجل؛ إن أكبر الفوارق التي أصابت معادلة الزواج بخلل مزمن، هو سرية العادة، وتفريغ الكبت الجنسي دون مراقبة من أحد إلا الله، والذي هو حليم ستار! ... بكل وضوح؛ الرجل لا يتزوج في مصر؛ لأنه يقوم بتفريغ طاقته الجنسية بعيدًا عن الأعين، ولا حاجة له إلى مهر وشبكة وشقة وعفش. يكفيه لاب توب، أو وصلة دش! ... هو يعتقد بذلك أنه يحافظ على حريته وملكيته لنفسه ولحياته بعيدًا عن متاهات الزواج. وفي هذا الشأن يرد عليه المفكر والعالم الأمريكي بنيامين فرانكلين

قائلاً: "كثيرون يعتقدون أنهم يشترون اللذة؛ في حين أنهم في الحقيقة يبيعون أنفسهم لها، كالعبيد الأرقاء!".

وابقوا معنا !

في أواخر الثمانينيات انتشرت فجأة موضة الأفلام الجنسية الأجنبية التي كانت تأتي وتتسرب داخل مجتمعات الشباب من مصدر مجهول هو إسرائيل في الأغلب، وكان الفيديو المنزلي يلعب دور البطولة.

في أوائل التسعينيات راج سوق «أرايل» التلفزيون التي تلتقط إرسال اليونان وقبرص وإسرائيل وتركيا؛ خاصة في المساء بعد نوم الأهل، وضعف إرسال القنوات المحلية، وسمعنا لأول مرة عما يسمى بال «أمبليفاير» الذي يقوي الإرسال، ويوضِّح الصورة، ويأتي بالبنات عريانة من أفلام الليالي الحمراء على شواطئ المتوسط !

في النصف الثاني من التسعينيات؛ غزا الدش أسطح منازل القاهرة والمحافظات، وتوارى الفيديو والأرايل الشبح، فقنوات الجنس بالمجان صباحًا ومساءً ... وفُتحت الأعين على عوالم ما أنزل الله بها من سلطان!

في الحقبة نفسها؛ بدأ الإنترنت يدخل البيوت على استحياء، وصار الجنس رهن إشارة الشباب. يكفيك أن تكتب ما تبحث عنه لتجده. ولأن البطالة والفراغ رأس مال الشيطان؛ فلم يدفع الفضول شبابنا للتعرف على إسهامات ماري كوري في الكيمياء والفيزياء؛ بل فضَّلوا مشاهدة إنجازات مارلين مونرو في البيولوجي!

وفي الحقبة ذاتها؛ ذاع صيت الفيديو كليب، وظهرت أجساد الشوام في إغراء فتَّاك، وسرعان ما نافستهن المصريات. وكان الفائز الوحيد

هو المشاهد الكريم، أو اللئيم حسب وجهة نظرك!

وفي مطلع القرن الجديد، انتشر المحمول، وسرعان ما زُوِّد بالكاميرا، وراجت أفلام البلوتوث العربية، يتبادلها الشباب، ودخلنا مرحلة أكثر خطورة؛ فلم تعد الأجساد العارية تخص نساء الغرب فحسب؛ بل ظهرت للمرة الأولى أفلام جنسية لبنات العرب.

هل بدأت الصورة تتضح عن سبب عزوف الرجال؟ وماذا عن المشاكل الاقتصادية التي يتذرَّعون بها وتحول بينهم وبين الزواج؟

أزمة السكن المسيطرة على المجتمع - في الثمانينيات - لم تعد قائمة بالعنف نفسه بسبب قانون الإيجار الجديد الذي أتاح لمعظم الشباب البداية السهلة نسبيًّا؛ بعيدًا عن الخلو والمقدم والأقساط الكبيرة. ولم تعد معظم الأسر الآن تمانع في أن تبدأ بناتهم حياة جديدة في شقة مؤقتة؛ انتظارًا لتحسن الظروف.

أزمة الأسعار - قياسًا للأجور - هي أزمة تعود إلى 35 سنة مضت، بينما دعم الأهل لم ينقطع؛ بل زاد دعمهم لبناتهم حاليًّا؛ حتى إنك لتندهش لحجم التنازلات المقدَّمة بلا أدنى فائدة أو رجاء.

أكثر الفئات إقبالاً على الزواج هم الطبقات الأدنى التي تجد قوت يومها بالكاد، وهو ما يدحض الزعم القائل أن الظروف لا تسمح بالزواج.

أما القول بأن الطبقات الدنيا طموحها بسيط؛ ما يُيَسِّر من مراسم الزواج - في مقابل مبالغات مادية في الطبقات العليا - مردود عليه بطريقتين؛ أولاً: تتناسب تطلعات كل طبقة مع إمكاناتها؛ وهو ما يجعل قياس المبالغة مسألة نسبية جدًّا؛ بل أحيانًا تتمرد الطبقات الدنيا - مع الانفتاح على العالم - على وضعها الطبقي وتطالب الزوجة بما لا يطيقه الزوج. ثانيًا: توافر إرادة الزواج عند الطبقات الدنيا يتغلب على صعوبات

المعيشة؛ لأن الإشباع الجنسي المتوافر بغزارة - للطبقات المتوسطة والعليا - ما زال بعيدًا عن إمكاناته بالقدر نفسه.

لا يشعر الرجل بتأنيب ضمير - أو بضغط أُسَري أو مُجتمعي عليه - إن تأخَّر في الزواج وتخطَّى الأربعين. فهو رجل، وهو حُرّ. بينما تبدأ الفتاة مُعاناتها منذ الالتحاق بالكلية، ويظل الجميع يؤنِّبها على تأخرها في الزواج سنة بعد الأخرى؛ وكأنها تتكاثر ذاتيًّا مثل الأميبا! بل إن المثل ذائع الصيت يقول: زوِّج ابنك عندما تريد وابنتك عندما تستطيع! وإن تقابلت البنت مع قريب أو غريب في الشارع أو على التليفون أو عبر أية وسيلة اتصال، فإن سؤاله لها: إيه الأخبار؟ يعني دومًا: لسه ما حصلشي نصيب؟ بينما السؤال نفسه إن وُجِّه إلى رجل؛ فربما يعني كام كام مباراة الأمس، أو متى تسافر الساحل، أو كيف حال شغلك، أو إيه أخبار المُزَز؟

ويتناسى المجتمع أن الفتاة - كي تتزوج - لابد أن يتوافر لها رجل يريد أن يتزوج، لكننا لا نطالبه هو بأن يتزوج!

حلوة دي!!

أنقل إليكم بعض المشاهد من الواقع؛ وهو بكل أسف اسم على مُسَمَّى، واقع واقع!

غاب أحدهم عن دراسته الجامعية لمدة أسبوع. سألوا عنه. قيل: كان الله في عونه. قالوا: خير إن شاء الله؟ قيل: دخلت عليه أخته وهو جالس على الإنترنت مستمتعًا بفيلم ثقافي، وعندما ضبطته على هذا الوضع، حبس متعته الحسية قبيل وصولها للقمة كي لا تشاهده على هذه الحال، وجاء هذا التماسك المفاجئ مُضِرًّا لأجهزته البيولوجية. وكانت النتيجة

أن أصيب بالتهاب حاد في أعضائه التناسلية، وأصبح عاجزًا عن المشي ونقلوه إلى المستشفى ووضعوا له ثلجًا، وكان على وشك الموت، ولم يعد قادرًا على المشي إلا مفتوح الساقين! ... سلامته ألف سلامة!

كنت منشغلاً بكتابة مقال جديد، وكانت جلسة البورصة في مقر عملي هادئة، فقررت أن أفتح خريطة أيسلندا على الإنترنت لسبب متعلق بالمقال. فوجئت برسالة على الصفحة بأنها محظورة من قبل الإدارة. سارعت بالاتصال بمسئول الأي تي في الشركة. أخبرني أنه بعد أن تكرر إصابة شبكة الإنترنت بفيروس ناتج عن المواقع الإباحية؛ فضَّل أن يمنع مجرد البحث عن صورة. والخرائط من الصور، والحسنة تخص والسيئة تعم!

عندما يبدأ زملائي المتزوجون في الأحاديث الخاصة عن زواجهم - وهي عادة مذمومة ومفزعة - لا يذكر أحدهم قط أنه سعيد في حياته، ويبدأ كل منهم بالسخرية من زوجته. وهذه العادة منتشرة جدًّا، ويرتاح لها الأدباء والفلاسفة وأصبحت من التراث الأدبي الساخر، ويقول مثل هولندي مرَّ عليَّ مؤخرًا "تتزوج المرأة لتدخل العالم، ويتزوج الرجل ليخرج منه!". الكل متذمر، ولا أحد مرتاح، ولا أحد يذكر الحب والسكن والمودة. أستمع إلى حواراتهم التي أحيانًا ما تتجاوز في جرأتها وتقتحم مناطق محظورة، ولا أشارك فيها، لكن أرسطو يظل مُسيطرًا على حواسي حين قال: "إن حُبًّا ينتهي في يوم من الأيام، لم يكن حُبًّا في يوم من الأيام!".

تعوزني الآن بعض الأرقام، إن كنتم في شك مما أقول! ... ادخل محرك البحث جوجل، واكتب كلمة سكس باللغة العربية، ستجد 422 مليون عنوان يشتمل على الكلمة. وهي أكثر كلمة يبحث عنها متحدثو اللغة العربية بعد لفظ الجلالة (الله) الذي يعتلي الصدارة بـ 475 مليون عنوان ... يا الله ! إنه المزيج المتناقض إياه بين الدين والجنس الذي يشكل وجدان العرب!

لا زلنا على جوجل: إن كتبت كلمة بنات، ستجد 62 مليونًا، وإن كتبت الإسلام ستجد 59 مليونًا؛ وهو العدد نفسه الذي ستجده لـ(فلسطين). فالرجال يعرفون إسلامهم جيدًا، ويعرفون فلسطينهم بما يكفي، لكن تعوزهم معرفة البنات أكثر. البنات بتكسب يا جدع!

وماذا عن الشخصيات العامة المعاصرة؟ إن كتبت هيفاء وهبي ستحظى بـ7 ملايين عنوان، تنافسها زميلتها نانسي بـ6 ملايين. بينما عمرو خالد لا يحظى سوى بمليوني عنوان، والحائز على نوبل الدكتور زويل ليس لديه سوى 267 ألف عنوان ظهر اسمه فيها. فالعلم لا يُكَيَّل بالبتنجان، لكن هيفاء تُكَيَّل بالذهب!

وعندما دخلت على جوجل، وكتبت كلمة «أكثر»؛ رغبة في التعرف على «أكثر» ما يبحث عنه العرب على جوجل، فوجئت بجوجل - وهو أذكى مني ومنك - يقترح عليَّ العبارات الشائعة التي تكمل جملة تبدأ بكلمة «أكثر»، وجاء ترتيبها من حيث الشيوع كالتالي: «أكثر» الأماكن إثارة في جسم المرأة. «أكثر» ما يثير المرأة في الرجل. «أكثر» المواقع الإباحية زيارة، «أكثر» الفتيات إغراء ... يا إلهي! «أكثر» من كده إيه دليل على مصيبتنا السودة!

في مصر، أكدت دراسات -قبل الثورة - أن 70 % من مستخدمي الإنترنت نهارًا يدخلون على المواقع الإباحية، بينما ترتفع هذه النسبة إلى 90 % ليلاً. هذه النسبة قد يعتقد مُعتقد، ويتصور مُتصوِّر أنها مخيفة بما يكفي. وأقول له لا، ليس بما يكفي! فهي نسبة مضللة، فإذا كان 90 % من مستخدمي الإنترنت ليلاً يستخدمونه في المواقع الإباحية، فإحصائيًّا هناك خلل في فهم النسبة. أقول لكم السبب. مثلاً، إن استخدم مئة شخص الإنترنت ليلاً في مصر، فإن ثمانين منهم من الرجال، مقابل

عشرين من النساء. هذا على سبيل المثال. ونسبة دخول النساء على المواقع الإباحية بسيطة مقارنة بالرجال. وهو ما يعني أن الـ 90 % التي تشمل العينة بالكامل، لم تأخذ في الحسبان التفرقة بين الرجال والنساء. وعلى هذا فإن نسبة الرجال المُطَّلعين على المواقع المشبوهة ليلاً سوف تصل إلى 99 % على أقل تقدير! وهو ما يعني أن من كل ساعة إنترنت ذكورية ليلية، هناك 36 ثانية فقط تنقضي في غير الجنس. فلا يسألنَّ أحد عن سبب هدَّة حيل الرجَّالة، وعزوفهم عن الزواج !(8)

ولا تساهم هذه الكارثة التكنولوجية في إحجام الرجال عن الزواج فحسب؛ بل هي تساعد كثيرًا في الإجهاز على زيجات قائمة بالفعل. فقد كشفت دراسة إحصائية مصرية رسمية - صادرة عن جهاز التعبئة والإحصاء - عن أن أغلب حالات الطلاق التي تم رصد أسبابها خلال العامين 2006 و2007 كانت بسبب الإنترنت الذي يسبب ظاهرة الخرس الزوجي ومشاهدة مواقع إباحية، ومن ثم الخيانة الزوجية. وأوضحت الدراسة أن مصر شهدت أكثر من 75 ألف حالة طلاق خلال عامي 2006-2007، وأن من بين هذه الحالات 45 ألف حالة كانت بسبب الإنترنت؛ إما بسبب الانشغال به أو استخدامه كوسيط للخيانة الزوجية. وأكدت الدراسة التي قامت بها الدكتورة زينب حسن أستاذة علم الاجتماع بجامعة عين شمس - واستعانت فيها بإحصاءات الجهاز المركزي الرسمية - أن 56 % من حالات الطلاق نتجت بسبب تفضيل أحد الزوجين للكمبيوتر على زوجه أو زوجته، كما أن ما يقرب من 56 % - ممن شملتهم الدراسة - انشغلوا بمشاهدة مواقع إباحية عن زوجاتهم.

(8) ونسأل الله أن يتغير الوضع بعد الثورة

وليس باقي العرب في منأى عما نقول، فإن الإحصاءات تقول إن 70 % من مُرتادي مقاهي الإنترنت في الخليج يدخلون على مواقع إباحية. كما تزفُّ إلينا بشرى تقول: إن مواقع جنسية إسرائيلية تقدِّم مشاهد جنسية بين العرب واليهود لنشر ثقافة السلام والتطبيع؛ وهو ده التظبيط المظبوط !

من بين قائمة الـ 24 دولة الأكثر زيارة للمواقع الإباحية على مستوى العالم؛ هناك 17 دولة إسلامية؛ من بينها 14 دولة عربية. واللافت للنظر أن إسرائيل ليست داخل القائمة، بينما فلسطين ضمنها ! فتحتل إيران المركز الثاني، ومصر المركز الرابع، ويتألق العرب محافظين على خمسة مراكز ضمن الـ Top 10 !

مؤخرًا أعلن الجهاز المركزي للإحصاء عن ارتفاع نسبة العنوسة لتصل إلى تسعة ملايين شاب وفتاة تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين من دون زواج. وقد وصل عدد الإناث إلى ثلاثة ملايين و962 ألفًا، والباقي من الذكور. أما من وصلوا إلى سن الزواج المعتاد ولم يتزوجوا بعد؛ فقد بلغوا 13 مليون شاب وفتاة. ولا يختلف الحال كثيرًا في باقي الدول العربية؛ خاصة تلك التي تزيِّن لوحة الشرف الإباحية. فها قد عُرف السبب، وزاد العجب !

في بعض كتب الفقه الصفراء؛ يُعرِّفون الزواج على أنه "عقد يملك به الرجل بضع المرأة". والمتأمل للحال؛ سوف يلمس بمنتهى الوضوح أن علاقة الرجل بالمرأة في مصرنا الغالية لا تتجاوز كثيرًا كتب الفقه الصفراء؛ فيصل اصفرارها إلى حد الشحوب ... ويبدأ الرجل بملكيته للمرأة في مرحلة مبكرة جدًا؛ قبل الخطوبة وقبل عقد القران. يفرض ذوقه على ملبسها ومأكلها وطريقة كلامها وأسلوب

حياتها، ويحشر نفسه في أدق تفاصيل حياتها مُغيِّرًا ومُعدِّلاً؛ كي يرضي غروره وشهواته ومزاجه وطباعه الخاصة. فهل يمنح المجتمع المرأة مثل ذلك الحق؟ هل في وسع الفتاة أن تنظر إلى عريسها في عينيه، وتفرض عليه شروطها في ثقة؛ فتخبره مثلاً أنها لا يمكن أن تتزوجه قبل أن يمتنع عن التدخين (التدخين يضر بصحته وصحتها وصحة أطفالهما، كما يتسبب في انبعاث رائحة كريهة جدًّا من فم المدخن، تؤدي إلى نفور الزوجة من زوجها)، أو قبل أن يفقد من وزنه 30 كيلوجرامًا؛ نظرًا لاقترابه من حجم سيد بيه قشطة، أو حتى يُغيِّر من طباعه الحادة ويعف لسانه عن الشتائم البذيئة، أو حتى يتوقف عن عادة قضم أظافره المُقرفة، أو تلفت انتباهه إلى ضرورة الاستحمام يوميًّا لأن رائحة عرقه كريهة، أو ترجوه أن يُغيِّر جواربه أولاً بأول؛ لأنه حين يخلع حذاءه من أجل الصلاة، تنقلب رائحة الصالون، أو تؤنبه على إهماله في الصلاة وتشترط عليه أن يواظب عليها قبل أن توافق هي عليه. ياه .. عشرات التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي تزعج البنات من عرسان الغفلة ولا تنطق إحداهن خوفًا من ضياعه.

فما أضيعه رجلاً!

وما أضيعها معه!

وما أضيعها بدونه!

نعود مُجدَّدًا إلى قاسم أمين، نستكمل معه أجزاء الصورة؛ كي نستوعب قدر المُستطاع حجم الكارثة التي نعاني منها اليوم بعد مئة عام من رحيله، وبقاء أفكاره شاهدة على تدهور حاد في مساحة

الحرية؛ إن اعتبرنا أن الحرية هي نقيض العبودية، وأن ما نحن فيه معشر الرجال هو الرِّقُّ بعينه.

"وبديهي أن المرأة التي تحافظ على شرفها وتصون نفسها عما يوجب العار، وهي غير محجوبة، لها من الأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية، أما عفة الأخرى فهي اختيارية، والفرق كبير بينهما. ولا أدري كيف نفتخر بعفة نسائنا، ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران؟ أيُقبل من مسجون دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس؟ فإن كانت نساؤنا محبوسات محجوبات، فما معنى أن يقال إنهن عفيفات؟ إن العفة هي خلق النفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها. ولعل التكليف الإلهي إنما يتعلق بما يقع تحت الاختيار، لا بما يُستكرَه عليه من الأعمال. فالعفة التي تكلف بها النساء يجب أن تكون مما يقع تحت اختيارهن، لا أن يَكُنَّ مُستكرهات عليها، وإلا فلا ثواب لهُنَّ في مجرد الكف عن المنكر. ولذلك قال رسول الله: مَن عشق فعفّ فكتم فمات، فهو شهيد".[9]

هذا على صعيد تحرير المرأة يا قاسم بك. ومنطقك مقبول شكلاً وموضوعًا. ولكن ماذا عن تحرير الرجل؟ وهل أناقض أنا نفسي ها هنا، إن طالبت الحكومة بتفعيل حُكم محكمة القضاء الإداري الصادر في مايو 2009 – والذي سمعنا عنه من جديد في أعقاب ثورة 25 يناير – والقاضي بحظر المواقع الإباحية على الإنترنت وحجبها عن المشترك المصري؟ ولماذا يتمكن مسئول الأي تي - حيث

(9) حديث شريف من تخريج السيوطي وتحقيق الألباني ويوصف بأنه موضوع. وإن كانت العبارة لا تَجاوُز مفرط فيها على صعيد الفكرة.

أعمل - من حجب المواقع على شبكة الشركة، في حين لا تتمكن وزارة الاتصالات من حجبها بشكل مُوسَّع؟ هل أنا هنا من الرجعيين المُستبدِّين الظلاميين الذين لم يتركوا للرجل الفرصة للتعبير عن تحضُّره بالترفُّع عن زيارة المواقع الجنسية رغم إمكانية ذلك؟ هل إباحة الإباحية لون من ألوان الحرية، نترك لكل إنسان شرف السيطرة على رغباته تحت دعوى التمتُّع بفضيلة العفة والاستشهاد في سبيلها كما أشار قاسم؟ ... أجزم أن هذه غير تلك. وأن الأصل في الإباحة، هو احتمالية أن يُستعمل المسموح به في نفع أو ضرر، وتظل الحُرمانية مرهونة بطبيعة الاستخدام. يتساوى في ذلك التليفزيون والفيسبوك والشات والمحمول وغيرهم. الفيسبوك مثلاً، تستطيع أن تتخذه أداة للتواصل مع الأصدقاء القدامى، والتعرُّف على جدد، وتنضم إلى مجموعات لها اهتمامات مشتركة، وتتابع حركة المجتمع من خلاله؛ بل وتدعو إلى الثورة على الحاكم المستبد، كما يمكن للفيسبوك أن يتحول إلى وسيلة للتودد إلى أغراب تمهيدًا لعلاقات مشبوهة، أو التطفُّل على خصوصيات الغافلين الناشرين لحياتهم الخاصة على الملأ من صور وأرقام هواتف ومعلومات شخصية. هنا فقط يمكن أن نتفق مع فكر قاسم أمين بإباحة الفيسبوك بخيره وشره؛ تاركين طبيعة الاستخدام لضمير المستخدم. أما أن ينطبق ذلك على قنوات الجنس الفضائية على الدش، وعلى مواقع العري على الإنترنت بدعوى الحرية وعدم التعدي على خصوصيات الغير؛ فاسمح لي عزيزي القارئ، هذا هو الكلام الفارغ بعينه! وهذا هو ما أُريدَ لنا بالضبط. فلا النظام السياسي كان يهمه أن ينصلح حال الشباب، ولا أن تستقر البيوت

المصرية. على العكس من ذلك، كان يهمه أكثر أن ينشغل الشباب - بالجنس والكرة - عن السياسة والاقتصاد. لذا؛ كنا نسمع كل يوم عن مُدَوَّنة سياسية تُغلق، وصاحبها يُسجن؛ بسبب رأي عَبَّر عنه بحُريَّة، بينما لم نسمع قط عن موقع جنسي أُغلق وسُجن مُنشئه بسبب صورة عارية رفعها على الموقع! ... ومن المؤكد أن خطوة الحظر هذه لا تكفي لإصلاح أجيال متهالكة من شباب فقد عقله بسبب السعار الجنسي والهياج الجسدي، لكنها خطوة ضرورية تمهيدًا لإصلاح حال التعليم والتربية في البيت والمدرسة والجامع. ولم يعد في هذا الجيل رجاء أو أمل. ويبقى الأمل في مستقبل الأيام. وهارد لك للفتيات الباحثات عن رجال يصلحون للزواج، فقد استُهلكوا مُقدَّمًا! ... ويبقى سؤال بريء: لماذا قررت حكومة ما قبل الثورة أن ترفع أسعار الإنترنت وربطه بأحجام التحميل، ثم عدلت عن قرارها في سابقة لم تحدث من قبل؟ وذلك عندما ثار الرأي العام عليها، ولسان حاله كان يقول: كله إلا اللذة الجنسية الافتراضية. اخفوا الخبز والأنابيب، ضاعفوا البطالة والفساد، غلُّوا البنزين واللحوم، أفسدوا التعليم والصحة. زيِّفوا الانتخابات وإرادة الشعب، ولكن إياكم والاقتراب من الإنترنت! ... كان هذا هو لسان حال حكومة ما قبل الثورة، ورأي عام ما قبل الثورة. والآن وقد صار للشعب إرادة أطاحت بالنظام الفاسد؛ فهل نطمح في إرادة مشتركة بين الحاكم والمحكوم للإطاحة بالإباحية؟

"على أن البرقع والنقاب مما يزيدان في خوف الفتنة، لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي

من خلفه العيوب، والبرقع الذي يختفي تحته طرف الأنف والفم والشدقان، ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والأصداغ وصفحات العنق، هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة، التي تحث رغبة الناظر، وتحمله على اكتشاف قليل خفي، بعد الافتتان بكثير ظهر! ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها". (10)

ورغم أن الكاتب يقصد أن كشف الوجه هو بمثابة ردع للخيال المريض الذي يصوِّر تحت القبة شيخًا؛ وهو ما يقلل من آثار الفتنة، ويضع علاقة الرجل بالمرأة في إطار يخلو من دناءة الفكر وهياج الرغبة؛ فإنني سأتجاوزه هنا إلى ما هو أبعد من خياله البريء. دعنا من الأعيُن والشفاه والحواجب يا سيدي الفاضل؛ فلم تعد هذه من المُهَيِّجات في جيل الإنترنت السعيد. وبمنطقه نفسه؛ نرى اليوم غير ما كان يقصده بالأمس. فعندما تسير المرأة أمام الرجل في الشارع؛ في ملابس لا تستر وتداري؛ بقدر ما تكشف وتصف وتشفّ وتفصِّل، تتساوى في ذلك معظم المحجبات مع غير المحجبات. وعندما يتيح الإنترنت للرجل أن يشبع غرائزه بكل أشكال وصنوف العري والجنس؛ بحيث يزهد تمامًا في علاقة حميمة شرعية تُلزمه أولاً بأعباء الزواج وتكليفاته؛ فإن الناتج المؤكد - لهذه المعادلة الجنسية - أن ينصرف الرجل المصري عن المرأة المصرية؛ لأنه إما متشبع بمَن هي أكمل جسدًا وأجمل وجهًا في عالم الإنترنت الافتراضي، وإما متشبع بالكاسيات العاريات، والبيكيني من المايوهات، وفساتين الأفراح

(10) جاءت هذه الفقرة في باب حجاب النساء من الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، الجزء الثاني: في الكتابات الاجتماعية، من إصدارات دار الشروق، صفحة 109.

والمناسبات. يمارس الرجل الجنس الافتراضي ويشبع غرائزه، ولا تعود لديه الرغبة في أن يستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى!

"تحايل: أخبرني موظف في الأزهر، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة، أنه كُلَّما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن يسير وراء شهوته، ذهب إلى أحد البيوت العمومية، وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر قدره خمسة قروش، فإذا قضى شهوته طلَّقها، وخرج معتقدًا أنه بريء من كل ذنب".

والله لقد أصبحت الأمور اليوم أرخص بكثير. فالاشتراك الشهري على الإنترنت 45 جنيهًا؛ وهو ما يعني أن بالخمسة قروش نفسها تستطيع أن تشاهد فيلمًا إباحيًّا على الإنترنت مدته ساعة إلا ربعًا؛ مع إمكانية تحميله واستعادته عند الحاجة. ومع مراعاة فارق القيمة في العُملة بين عامي 1900 و2012، ومع الأخذ في الاعتبار اتساع المجال للاختيار بين جميع أجناس وأشكال العاهرات مقارنة بالماضي؛ فإن انقضاء الشهوة اليوم أقل تكلفة وأعظم متعة! ... يا بلاش!

"الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية. ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنًا من السقوط يومًا في الرذيلة، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة، إلا وفيه استعداد لأن يأتي يومًا بأفضل الأعمال. وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئًا يتم دفعة واحدة، وليس لها حد تقف عنده، إنما هي في تحليل وتركيب، في تكوُّن مستمر، يعتريها الانحلال زمنًا وتعود بعده إلى التماسك. في الأمة الضعيفة المُستعْبَدة حرف النفي

(لا) قليل الاستعمال".

وعندما أتأمل الشعارات السياسية اليوم مثل «معًا سنغير»، لا أتحمس لها بما يكفي. «معًا سنتغير»؛ كي تكون لدينا القدرة على تغيير الغير. فآفة الآفات أن نظن أن العيب في الغير، ونحن بدر التمام. وإذا ما شاورنا بالسبَّابة ناحية المخطئ، فسنجد بقية الأصابع تشير إلينا. كيف يطالب الرجل المصري بحرية الإعلام وحرية الرأي وحرية الانتخاب وحرية العقيدة وحرية الفكر وحرية كل ما يأتي ببال أو يجول في خاطر؛ في الوقت الذي تبقى فيه روحه وجسده قيد العبودية والذل والضعف؟ الخطأ وارد، والسقوط جائز، لكن الاستسلام لشهوة الجسد ومطالبة الغير بعدم الاستسلام لشهوة الحُكم هو من قبيل الفوضى الفكرية. وكلٌّ يُغَنِّي على شهواه!

"وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية، وستنتهي إلى الحرية. غير أنها فيما بين هاتين الفترتين مقضيٌّ عليها أن تعاني محنة الاستبداد، الذي يبدو أنه ضروري لاختبارها. ما أسعد الدول التي يُكتب لها، بعد هذه المحنة، البقاء! "

وإن استمر الرجال على ما هُم عليه من عبودية وإدمان للجنس عن بُعد، فإننا لن يُكتب لنا - بعد هذه المحنة - البقاء. بل سيُكتب علينا - مع هذه المحنة - البقاء لله!

جاءت هذه الكلمات دفاعًا عن قاسم أمين، في مواجهة القرود الخمسة الذين صاروا بالملايين! جاءت هذه الكلمات دفاعًا عن النساء، في مواجهة الرجال العوانس الذين صاروا بالملايين! جاءت

هذه الكلمات رغبةً في تحرير الرجال من عبودية فجَّة، واستعمار لئيم، يمسح عقولهم وينهش في أجسادهم؛ حتى صارت مقولة شوقي الشهيرة: "عقله في أذنيه"، أقرب إلى تعديل مُخْزٍ ينتقل عقله بموجبه إلى عضوه الذكري!

جاتنا الخيبة!

قـالـوا .....

وقُـلْـنـا !

فكما أن التاريخ يكتبه الأقوياء الذين انتصروا في الحروب، وفرضوا كلمتهم، وجعلوا من المنهزمين أشرارًا ووحوشًا، استحقوا القتل والتمثيل بأجسادهم على صفحات الكتب وشاشات السينما، فإن تاريخ الزواج والحب قد كتبه الرجال، بصفتهم المُهيمنين على شئون الأسرة؛ فضلاً عن شئون الطباعة والنشر والتأليف!

وكم من كاتب رائع قد وقع في ذلك الفخ بكامل إرادته، وغلبته شهوة السخرية من المرأة ومن الزواج ومن الحب. وللإنصاف؛ ينبغي أن نعترف بأن للكتابة اللاذعة سحرها، ولا تفوق متعة قراءتها سوى متعة تأليفها، ولكن من العدل كذلك أن نعترف بأن عيوب المرأة ونواقصها - والتي أسهب المؤلفون جيلاً بعد الآخر في فضحها والتشهير بها - تقابلها على الشاطئ الآخر عيوب الرجل ونواقصه. فالإنسان إنسان؛ لا فرق بين ذكر وأنثى في انتفاء الكمال؛ وإن كان يبقى الفارق فحسب في جوانب القصور المتباينة. فإن عُرف عن امرأة النميمة؛ فقد يُعرف عن رجل الكذب، وإن اتسمت امرأة بالغيرة؛ فقد يتصف رجل بالخيانة! كل ما هنالك أن صوت الرجل أعلى، وأن المشتغلين منهم بالأدب أكثر.

وفي هذا الفصل يحاول كاتب السطور – مُشفقًا على نفسه

– أن يقلب المائدة فوق التراث الساخر، ويهاجم المهاجمين بسلاحهم ذاته. والبادئ أظلم!

"قالوا: إن النساء في المجتمع عدد زائد، ولكن المجتمع يشعر بالنقص في غيابهن".

كلمة في أُذُن المجتمع: اخترع العرب في علم الحساب الصفْر. ودون المرأة، أنت مجرد اختراع!

"قالوا: لا تتزوج من أجل المال، في وسعك اقتراضه بفائدة أدنى وبشروط أفضل".

لم يُخطئ مَن صوَّر له خياله الزواج بنكًا يُقرض بفائدة وشروط. فالزواج بنك السعادة، يمنحها مقابل تقدير العطايا. قليل من الـAppreciation يا سادة!

"قالوا: الزواج ميناء في الزوبعة، وكثيرًا ما يكون زوبعة في الميناء".

أفضل من ذلك القول بأن الزواج سفينة منطلقة في بحر الحياة، يلزمها موتور من العواطف وخريطة ملاحية لكتالوج التفاهم. أما الزوبعة فحُجَّة البليد؛ لأن العواصف الحقيقية تقابلنا في عرض البحر، ولا يتغلَّب عليها سوى أصحاب العزيمة على استكمال المسار الناجح، ولو عزف ذوو القلوب الرقيقة عن الزواج هربًا من المشاكل؛ فهم كالباحثين عن مداواة الظمأ بهجر الماء!

"قالوا: الزواج قفص يرى الإنسان العصافير التي خارجه

متلهفة للدخول إليه، والتي بداخله متلهفة للخروج منه".

وهو ما يُذَكِّرني بعبارة تقول: السور الذي حول المقابر لا معنى له، فلا الذين بالداخل يمكنهم الخروج، ولا الذين بالخارج يريدون الدخول! فإن كان السور هناك غير ذي جدوى، فإن القفص هنا حائل دون رغبة السجناء والطلقاء؛ إلا أنه من العبث أن نصف الزواج بقفص، بينما الأعزب هو حبيس الوحدة، سجين الرغبة، غائب الهدف. وأسوأ ما في الدنيا هو ذلك الرجل الذي لا هدف له، ولا هدف منه. منتهى الملل!

"قالوا: ليست الحياة جميلة لنا نحن الرجال: عندما نولد تتلقى الأم كل التهاني، وعندما نتزوج تنال الزوجة كل الهدايا، وعندما نموت تستولى الزوجة على التأمين. كما قالوا: الزمان أكثر إنصافًا للرجال: إنهم يتزوجون متأخرين، ويموتون مبكرين".

ألا ترون المفارقة؟ بعضهم يرى تجنِّي الحياة على الرجل الذي لا يحظى بالتهاني ولا يسعد بالهدايا ولا يقبض التأمين على حياته، رغم أنها حياته هو، وليس في مقدوره أن يشتري عمره ويبيعه في آن واحد! وبعضهم يثني على عدالة الزمان؛ إذ يتزوج الرجال في سن متأخرة، ثم يفارقون الزوجة بالموت. غير أن البعضَيْن اتفقا على أمر واحد، وهو النفور الحاد من الزواج، كما لو كانوا يعانون من الحساسية التي تعتري البعض من أطعمة بعينها، لكن الحساسية من المرأة قد تشبه الحساسية من الهواء؛ فإن تمكنتم أيها النافرون النفَرِيُّون المُنَفِّرون من البقاء أحياء دون تنفس، يكون في وسعكم الاستغناء عن المرأة، وتأخذون بوليصة التأمين معكم إلى القبور! ..

يلخص العلم الحديث حالة أمثالكم بالجاموفوبيا![11]

"قالوا: الزوجة التي رضيت بحظها، لم توجد".

يا نهار مش فايت! بل إن عكس هذه الزوجة لا وجود لها بالمرة. إن الزوجات والواقفات في طابور الزواج في مجتمعنا ينطبق عليهن المثل القائل: رضينا بالهم والهم مش راضي بينا! أعرف أحدهم في السادسة والثلاثين؛ تنظر إليه فتحسبه في الخمسين. طلب من قريبته المتزوجة أن تبحث له عن عروس؛ بشرط أن تكون رائعة الجمال وهائلة الجاذبية، وألاَّ يزيد عمرها على 21 سنة، وأن توافق على الحياة في الغُربة بعيدًا عن أهلها. أخذت قريبته على عاتقها البحث له عن طلبه المخصوص. وأطلعته على صور عشرات بنات العائلات الجميلات، وكان يرفض مُمتعضًا، ثم أتت - له في النهاية - ببنت صاروخ بلغة العصر، فأبدى إعجابه بتحفُّظ، ثم قال في ألاطة: إنها مُبهرة الجمال بالفعل، لكنها ليست شديدة الجاذبية! ثم اعتدل في وقفته وصارح قريبته قائلاً: أنا لا أتزوج من أجل الزواج وتكوين الأسرة وهذه التُّرهات الفارغة، أنا أريد فتاة لتلبية احتياجاتي الجنسية فحسب! ولو سُئلت أنا الرأي، لأرشدته إلى محلات السكس في أوروبا، هناك سوف يجد أدوات وألعابًا وأعضاء جنسية مصنوعة من مواد مثيرة، وفتيات من البلاستيك لها منفاخ، ينفخ وينبسط، ثم يفسِّي ويسكت، فتفي بالغرض، وينتفي الغرض!

"قالوا: دام الحب زمنًا طويلاً في العصور الماضية؛ لأن وجوه

(11) الخوف من الزواج

العرائس كانت تبدو بعد غسيلها، كما كانت قبل الغسيل".

ولأن سلوك الرجال كان يبدو بعد الزواج، كما كان قبل الخطوبة!

"قالوا: الحب قبل الزواج: أشبه بمقدمة وجيزة ممتعة، لكتاب طويل مُملّ"!

ونقول لهؤلاء: لا تلوموا القراء؛ فالملل من الكتاب يتوقف على الكاتب وحده. وإن لم يعتبر الزوج نفسه مسئولاً عن نجاح الحياة الزوجية - مثله مثل الزوجة في ذلك - فعليه أن يراجع الفهرس؛ ليرى بعينيه مَن وضع عناوين فصول حياته المُملَّة. فلن يجد سواه مُسيطرًا .. ومُسَطِّرًا! ... سئلت البارونة بوردت كوتس وهي في التسعين من عمرها: متى تتوقف المرأة عن الحب؟ فأجابت: اسألوا مَن هن أكبر مني سنًّا!

"قالوا: يطلب الرجل من المرأة ثلاثًا: الفضيلة في قلبها، والوداعة على وجهها، والابتسامة على ثغرها".

والحقيقة أن الرجل يطلب من المرأة أشياء كثيرة لا حصر لها. يتعرَّف أحدهم على إحداهن بغرض الزواج، فيستهلّ كلامه في عجرفة قائلاً: أنا لمَّا أتجوز، مراتي لازم. لازم إيه يا حضرة؟ يضع لها أجندة طويلة من البنود تفوق بنود مباحثات السلام. وليت بنوده تحمل عناوين برَّاقة مثل السلام مقابل الأرض، أو السلام مقابل الأمن، أو السلام مقابل ساندوتش جبنة وقزازة حاجة ساقعة. لا قط، إنه الاستسلام غير المشروط مقابل الحصول على الزوج. ونقول لأصحاب مبادرة «أنا لمَّا أتجوز»، أن الواحد منكم لا يتجوَّز على روحه، لا يتجوَّز بمفرده، بل إن اللفظ نفسه يحمل معنى تحوُّل الفَرْدَة

الواحدة إلى جوز. وبقدر الاحترام الذي تُبديه لعروس المستقبل؛ بقدر الاحترام الذي تناله منها، فإن عاملتها على أنها فردة شبشب، فسيادتك لا مؤاخذة ... الفردة التانية!

"قالوا: الحب يبدأ بقُبلة تنقل الميكروب، وأحيانًا يكبر الميكروب، فيُسَمَّى زواجًا".

هؤلاء هم مُدمنو الحياة الافتراضية. يستمتعون بالفُرجة على الآخرين. تثيرهم قبلة البطل للبطلة. يهللون إن خلعت البطلة قميصها. يستأنسون بالأفلام الثقافية. يعيشون على هامش الدنيا، لكنهم يشمئزون من ممارسة الحياة بأنفسهم؛ فهي معبأة بالبكتيريا والمشاعر والزواج والأطفال وقائمة طويلة من الموبقات! ... إنه مزيج من الوسواس القهري والماناخوليا!

"قالوا: كلما قصر الفستان، طالت النظرة إليه"!

حسنًا. ولكن هل نطمع بعدما يطول نظرك إليه، أن يرتفع نظرك عنه لأعلى، فتخاطب عقل صاحبة الفستان، والجسد؟

"قالوا: المرأة تبني البيت والمرأة تهدمه".

طيِّب وأين كان الرجل في تلك الأثناء؟.. كان يبحث عن امرأة أخرى!

"قالوا: الفتاة كالظل: اتبعها تهرب منك، واهرب منها تتبعك".

حسنًا؛ وبمناسبة الظواهر الطبيعية؛ نقول: بعض الرجال إن تأملتهم من بعيد استبشرت خيرًا كثيرًا، وإن اقتربت منهم وجدت سرابًا بقيعًا!

"تقول الحكمة القديمة: كلما بذلت المرأة للرجل من قلبها وجسدها، ازدادت تعلقًا به. وكلما تمتع الرجل بهذه الهبات، ازداد بُعْدًا عنها ونفورًا منها وزُهْدًا فيها".

والحق أن هذه الحكمة القديمة تستحق الضرب بالجزمة القديمة. وإن لم تستحق هي، استحق هو!

"قُطَّاع الطرق يطلبون منك إما نقودك، وإما حياتك. أما المرأة، فتطلب منك الاثنين".

الأديب الإنجليزي صمويل بتلر

ولعلنا يجب أن نلتمس العُذر للروائي الإنجليزي الذي توفي في مطلع القرن العشرين، فلم يسمع آنذاك من مواطنيه الذين احتلوا مصر عن ملايين السيدات العاملات المُنفقات على أزواجهن البلطجية من ضاربي البانجو، وذلك لعدم انتشار البلطجة وعدم انتشار البانجو!

"يكبر الأطفال عندما تبدأ الابنة في استخدام أحمر الشفاه، ويبدأ الابن في محوه عن شفتيها".

الروائي الإنجليزي سومرست موم

ودون أن أقصد التجريح في شخصه؛ إلا أنه معروف عن موم، أنه بدأ حياته جاسوسًا لبريطانيا في روسيا، وأنهاها كاتبًا للروايات الإباحية. وعلى ذلك؛ لا يجب أن نتخذ من خياله موضع الجد والتصديق. فإن كانت شفاه البنات علامة على الكبر والنضج؛ فلأنها تنطق بكلام أكثر وعيًا من ذي قبل، وليس لأنها صارت أكثر احمرارًا من ذي قبل!

"قبل الزواج يتفق العروسان على أن يكونا شيئًا واحدًا، ويمضيان العمر كله يتخانقان على أي واحد منهما"!

أنيس منصور

فارق كبير بين أن نكون شيئًا واحدًا، وبين أن يجمعنا هدف واحد، نصل إليه باحترام اختلافنا! ... ويعضِّد الأديب الفرنسي ألكسندر دوما هذا المعنى بقوله "ليس الحب أن ينظر كل واحد إلى الآخر، بل أن ينظر الاثنان في اتجاه واحد".

"الحب نجوم ننظر إليها في الظلام، والزواج حُفرة نقع فيها".

عالم النفس النمساوي ألفريد أدلر

أمر غريب؛ فأنا أراها معكوسة! فنحن نقول إن فُلانًا «وقع» في الحب، fall» in love» ، بينما لا نتكلم عن الوقوع في الزواج. ورأيي أن الحب بدون نية الزواج هو حُفرة لا قرار لها، وأنها السقوط بعينه. وإن تلك المشاعر التي تولد في الظلام وتعيش فيه، لا تلبث أن تموت من برودة الظلام بعد فتور حرارتها الكامنة. فإن قال قائل إن الحب نجوم في الظلام، فنقول له إن النجوم ما هي إلا شموس بعيدة لا فائدة ملموسة منها، أما الزواج فهو شمس قريبة حنون، تشرق وتدفئ وتضيء الطريق. أما مَن يستمتع بالعيش في الظلام، فمكانه في عيادتك النفسية يا تلميذ فرويد!

"ينبغي للمرء أن يكون عاشقًا على الدوام، لذلك لا ينبغي له قط أن يتزوج".

الأديب الأيرلندي أوسكار وايلد

يُذَكِّرني وايلد بشاب وقع في غرام فتاة، فقرأ الفاتحة، ثم طلب

منها أن يظلاَّ إلى الأبد على هذه الحال، بلا رابطة أو قيد، أو مسئولية اجتماعية. فُسَح وانبساط وتسبيل. قراءة فاتحة وكفى. فاتحة بلا كتاب. فاتحة بلا قفلة. إن أمثال هؤلاء يستحقون جائزة «أوسكار» في كونهم «وايلد»!

"المُصَوِّر هو الرجل الوحيد الذي يأمر المرأة بالسكوت التام، فتطيعه وهي راضية".

الأديب الفرنسي أونوريه دو بلزاك

ورغم أن الأديب الممتع هو رائد الواقعية في الأدب الأوروبي بأسره، إلا أن الواقع لا يجزم بهذه الفكرة القائلة بأن المرأة كثيرة الكلام والرجل قليله. فهناك من الرجال مَن لا يحب أن يسمع سوى صدى صوته. يأمر فيُطاع. يتحدث فيُنْصَت إليه. يسكت فيُقدَّس سكوته. وأنصح هؤلاء بالاستعاضة عن «المرأة» بـ«المرآة»!

"الزواج يُستخرج من الحب، تمامًا كما يُستخرج الخل من النبيذ".

الكاتب المسرحي الأيرلندي جورج برنارد شو

بل كما يُستخرج اللؤلؤ من الصَّدَف، والماس من الحَجَر، والثمار من السماد!

"لقد احتملت خيانات زوجي، طوال الوقت الذي أحببت فيه عشيقي"!

الكاتبة الفرنسية مارسيل أوكلير

وهذه قضية شائكة جدًّا. ففي الغرب؛ تأخذ المرأة حقها بذراعها،

مُتَّبعة مبدأ "كما تخون تُخان"! وقد تغفر له ويغفر لها، ويعودان كما كانا، أحلى من السمن عالبتنجان الأسود. ويلجأ البعض إلى فلسفة هذا الوضع الشاذ، ويدافع عن الحرية؛ بما فيها حرية الخيانة؛ قائلاً إن المساواة في الظلم عدل! فليكن! لكن كيف تحتمل المرأة عندنا خيانات زوجها؟ ولماذا ينظر المجتمع في بلدنا إلى مسألة الخيانة نظرة عوراء؟ فإن خان الزوج؛ فهو رجل ويجب أن نعذره، وإن خانت الزوجة فهي داعرة وينبغي أن نقتلها!

"تقول أسطورة إغريقية قديمة: إن إله الحب وإله الجنون كانا صديقين قديمين، ثم نشبت بينهما معركة؛ خرج منها إله الحب فاقدًا بصره. اجتمع مجلس الآلهة للتحقيق. وبعد المداولة؛ قرر المجلس معاقبة إله الجنون على جريمته بأن يعمل مُرشدًا لإله الحب في طريقه إلى الأبد. فجاءت الحكمة التي تقول: مساكين أهل الهوى، إنهم يتبعون أعمى ... يقوده مجنون"!

ورغم كامل احترامي للتراث القديم؛ إلا أن ثمة فارقًا هائلاً بين الهَوَى ... والهَوَس! ولو قُدِّر لي أن أعيد صياغة الأسطورة لوضعت لها السيناريو الآتي: بعدما حدث ما حدث؛ وفقد إله الحب بصره بسبب تهوُّر إله الجنون؛ يتدخل كبير الآلهة زيوس ويأمر بإيداع إله الجنون في مكانه الطبيعي على رأس قائمة قاطني مستشفى المجانين؛ على أن تقود ربة الحكمة أثينا إله الحب كيوبيد لتنير له طريقه، ثم يتزوَّجان في نهاية القصة، وينجبان أطفالاً يقدِّرون الحب ويفهمون حكمة الحياة. فيصير أهل الهوى في خير حال بلا نزعات من جنون أو ضروب من هذيان!

"قالوا: تزوَّجْ من أقبح امرأة في الوجود؛ حتى لا تخونك مع

أعز الأصدقاء".

وليست هذه العبارة دليل اتهام للحسناوات بالخيانة؛ بقدر ما هي دليل إدانة لقائليها بالوضاعة. فهؤلاء يلهثون خلف كل امرأة، ويفترضون أن سائر الرجال من الخونة، وكل الجميلات من العاهرات. هؤلاء يقتلهم الشك، ومن أعمالهم سُلِّط عليهم. وستكون جميع الجميلات اللاتي يشتهيهن هؤلاء من الشريفات العفيفات، ولن تخون زوجها مع أعز أصدقائه؛ سوى الدميمة التي آمن لها!

وإليكم هذه القصة الرمزية: كان هناك صديقان فاسقان لا يحلو لهما سوى مغازلة زوجات الآخرين وإيقاعهن في شباك الرذيلة؛ رغم أن كليهما متزوج. وفي أحد الأيام؛ قال الأول للثاني: لقد تعرفت على زوجة إمام الزاوية التي على ناصية شارعنا، وأريد أن أختلي بها في بيتها، لكنني أخاف أن يكشفنا زوجها. فما رأيك يا أعز الأصدقاء لو تذهب للصلاة هناك، وبعد الصلاة تجلس تتكلم مع إمام المسجد وتطيل معه الاستفسار عن أمور الدنيا والدين؛ كي تؤخره عن العودة لمنزله، فأستمتع بزوجته اللعوب. فإذا ما همَّ بمغادرتك، تسارع أنت إلى مهاتفتي على المحمول لتحذيري من قدومه؟ فرد الثاني على الأول وقال: طلبك مُجاب يا أوفى الأصدقاء. سأذهب إلى الجامع عند حلول الأذان، ولن أترك الإمام يغادره قبل ساعة على الأقل. ذهب الصديق إلى الصلاة. وبعد التسليم؛ راح يجالس الإمام ويناقشه في شتى الأمور. وعندما استأذن الإمام منه، سارع إلى الاتصال بصديق عمره لتنبيهه ... تكرر الأمر عشرات المرات، حتى نشأت صداقة حقيقية بينه وبين الإمام! وبدأ يشعر بوخز الضمير؛ لأنه لم ير من صديقه الإمام إلا كل خير ونقاء. وفي يوم من الأيام؛ اتخذ قرارًا

بأن يعترف للإمام المسكين بسر صديقه مع زوجته الخائنة. فتوجَّه إليه بعد انتهاء الصلاة مُتهَيِّبًا، وقال له في ارتباك: سيدي، أريد أن أعترف لك بسر خطير. لم أكن أجالسك هنا بنيَّة خالصة للتفقُّه في شئون الدين؛ بل كنت أفعل؛ كي أداري على صديقي الذي تخونك زوجتك معه الآن ... نظر الإمام إليه في جزع، ثم سكت للحظات من الذهول، وقال ضاغطًا على حروفه: لكنني... لست متزوجًا!

نصائح ناصحة !!

كيف تخون زوجتك ؟

ربما يظن القارئ أن الخيانة ظاهرة بعيدة عن مجتمعنا الوقور، وأن النزعة الإيمانية المخلوطة بضيق ذات اليد، ستمنع الرجل أن يلعب بذيله، وأن الرجل في شرقنا العفيف مقطوع الذيل، أو على أقصى تقدير لا يمارس سوى الخيانة الافتراضية على الإنترنت. وإن كان هذا صحيحًا إلى حد ما، فإن تلك الـ (ما) تزداد اتساعًا بمرور الأيام! ... ويطيب لي الآن الاستعانة بكتاب «لماذا يهرب الزوج إلى العشيقة؟» من إعداد رمزي المنياوي، للاطلاع على كل ما هو جديد في علم الخيانة الزوجية!

ونبدأ من إيطاليا بدراسة مرعبة تؤكد أن أفضل طريقة لتوثيق أواصر الزواج، تكمن في الخيانة الزوجية! بشرط أن تكون هذه الخيانة موسمية وعابرة، ومن دون أية روابط جذرية مع الفريق الثالث المعني بها؛ إذ إن الخائن أو الخائنة سيعود إلى شريكه منشرحًا ومرتاحًا ولا يشعر بملل الزواج مع عقدة ذنب صغيرة، تجعله يتحمل أخلاق شريكه الصعبة، أو التي لا تطاق أحيانًا !

وتنصح الدراسة الزوجين بإقامة العلاقات العابرة بعيدًا

عن المنزل؛ أي خلال رحلات العمل مثلاً؛ حفاظًا على سريتها ومتانة زواجهما؛ كشرط أساسي لإبعاد خطر كشفها، أو التعمُّق بها.

طبعًا؛ هذا كلام خطير ومزعج ولا أخلاقي، ولكن الكارثة أنه حقيقي ومثير للتأمل؛ فالزوج – في كل مكان – يصاب بالملل من فكرة الالتزام ببيت وأسرة وزوجة وأطفال. وتجده يجنح إلى الخيانة على سبيل شحن بطارية الزواج! ... ومن الملاحظ، أنه يمكن للزوجة أن تعيش مع زوجها الخائن وتسامحه، بينما لا يستطيع الزوج تقبُّل فكرة الحياة مع زوجة خائنة قط.

فهناك من الزوجات من يعتبرن أنه أهْوَن عليها أن يتعرَّف زوجها على عشيقة، بشرط ألاَّ يتزوجها؛ لأن مثل هذه العلاقة العابرة ستنتهي في شكل نزوة. أما ما تخاف منه الزوجة حقًّا، فهو أن تتطور العلاقة بينهما إلى زواج ثانٍ. ساعتها لن تحتمل الوضع. ولهذا؛ تسارع الزوجة إلى الغفران؛ كي تبعد تفكيره عن الزواج. غير أن مثل هذا القدر من التسامح الساذج، قد يشجعه على معاودة الخيانة. وتظل المُعضلة قائمة والأخطار قادمة!

وفي دراسة إنجليزية؛ تحاول مستشارة الزواج بث أندرسون أن تهوِّن على الزوجة وتبصِّرها، فتقول: من الضروري ألاَّ تشعر المرأة أنها ملومة أو فاشلة. فخيانة الرجل لا تعني أن هناك عيبًا في المرأة، ولكنها تعني ببساطة أن هناك شيئًا ما خطأ في العلاقة.

وتُنْصَح المرأة دومًا؛ بألاَّ تحاول مواجهة زوجها بكشفها خيانته لها؛ لأن نتيجة المواجهة قد تكون أمرًا من ثلاثة: إما أن يرد عليها ببجاحة ويحمِّلها مسئولية خيانته لها. وإما أن تتطور الأمور، ويأخذها كبرياؤها وتطلب الطلاق. وإما أن يعتذر الرجل ويلتمس

منها السماح، ولكن لا تعود علاقتهما كما كانت، بعد أن أصابها شرخ جسيم. لذا؛ يُفَضَّل أن تحاول المرأة دراسة الموقف بهدوء؛ لتتفادى العيوب التي أدت إلى قيام زوجها بالنظر خارج البيت. وأهم ما لا ينبغي للزوجة أن تقع فيه، هو أن تحكي لأهلها عن خيانته لها؛ قبل أن تحاول معالجة المشكلة ذاتيًّا.

ونطير إلى الأرجنتين الشقيقة؛ لنتعرف على آخر ما توصلوا إليه في علم تيسير الخيانة الزوجية؛ فقد عرض موقع أرجنتيني - على شبكة الإنترنت - خدمة غير تقليدية؛ وهي مساعدة من يمارسون الخيانة الزوجية على تجنب افتضاح أمرهم.

فنظير سداد مبلغ 120 دولارًا أمريكيًّا، يحصل المشترك في الموقع على باسوورد تنفذ به إلى خطة متكاملة للتمويه والتبرير؛ فيصير غيابه عن البيت والشغل والدنيا بأسرها أمرًا عاديًّا لا غبار عليه! ومن بين هذه الإجراءات التي يقوم بها موظفو الموقع الإلكتروني؛ إرسال بطاقات دعوة لحضور مؤتمرات وهمية، وتذاكر طيران مزيفة، بل وشهادات مختومة تثبت حضور تلك المؤتمرات!

ويقول المسئولون عن الموقع أن الخدمة التي يقدمونها لعملائهم متقنة إلى الحد الذي يمكنهم من خداع زملائهم ورؤسائهم في العمل؛ وليس فقط الزوجات؛ إذ يوفر الموقع أرقام هاتف للاتصال بالعميل أثناء حضوره للمؤتمر الوهمي. وإذا ما حاول أحد الاتصال به على تلك الأرقام؛ فإن سكرتيرة مزيفة من العاملين في الموقع سوف تتلقى اتصاله، وتبلغه في أدب جم أن الشخص المطلوب قد خرج لتوِّه من قاعة المؤتمر!

وكي تصل عملية الخداع الاستراتيجي إلى كمالها؛ فإن القائمين

على الموقع لم يغفلوا إعداد مؤثرات صوتية تحاكي الأصوات المعتادة الصادرة عن قاعة اجتماعات، وتصل تلك المؤثرات الصوتية إلى أسماع السائلين عبر الهاتف أثناء الحديث مع السكرتيرة المزعومة!

ويؤكد القائمون على هذا الموقع العبقري أن احتمال انكشاف المؤامرة يقترب من الصفر، لأنهم يدرسون حالة كل عميل على حدة، ويفبركون له الحجج الملائمة لظروفه. ومن الخدمات الإضافية التي يقدمها الموقع؛ إمداد العميل بتبريرات مقنعة لنفقات كارته الائتماني أثناء فترة غيابه. وقد لاقى الموقع إقبالاً شديدًا فور بدء تشغيله؛ حتى إن مسئوليه قرروا عدم قبول أكثر من ألف عميل في وقت واحد!

ونعود إلى إيطاليا مُجدَّدًا؛ إذ تنصح المحققة الفاضلة ماريام تومبونزي مستخدمي المحمول في الخيانة إلى توخي الحذر؛ كي لا ينكشف أمرهم. فقد أكدت دراسة هناك، أن 90 % من حالات الخيانة الزوجية في إيطاليا قد ساعد الهاتف المحمول في الكشف عنها، وأن ذلك يحدث عندما يحاول الخائن التستر على مكالمة عاطفية على محموله والتظاهر بأنها مكالمة عادية. لذا؛ فقد قامت تومبونزي مشكورة بتقديم عدد من النصائح الذهبية لإتقان فنون الخيانة اللاسلكية!

النصيحة الأولى: حتمية مسح رسالة العشيقة فورًا بعد قراءتها. وإذا ما كان الأمر صعبًا على النفس لجمال الرسالة ورومانسيتها، فتنصح بالاحتفاظ بمحمول آخر في مكان سري، لنقل هذه الرسالة إليه وحذفها من المحمول الأول!

النصيحة الثانية: تدريب النفس على الاستعداد لتلقي المكالمة التليفونية أمام الزوجة دون انفعال أو افتعال؛ وهو ما يحتاج حسبما

تشير إلى كثير من التدريب أمام المرآة، كما تنصح بتجنب العبارة المعتادة بأن الرقم خطأ؛ لأنها تثير الشك دومًا، كما توصي بتفادي خفض الصوت أثناء الكلام مع العشيقة في التليفون؛ لأن خفض الصوت يزيد من انتباه الزوجة إلى وجود أمر ما !

أما النصيحة الثالثة؛ فهي مصرية الصنع. لي زميل، يسجل أسماء عشيقاته على المحمول بأسماء الرجال كي يبعد الشبهات عنه، فإن أرسل له عبد الصمد رسالة، فليست هناك مشكلة، وإن اتصل به سعفان بعد منتصف الليل فلا توجد مُعضلة!

وأذكر - فيما أذكر - أن كان لي زميل دراسة يدوِّن على مُلصقات أشرطة الفيديو الإباحية العناوين التي لا تثير شكوك أهله؛ فمن رأيه أن الشريط الخالي من الملصقات المُعَنْوَنة، سوف يدفع الجميع إلى الارتياب في حقيقته ... أما إن وجد أبوه الأهلاوي شريطًا مكتوبًا عليه: مباراة الزمالك وبلدية المحلة، فلن يدفعه فضوله؛ فضلاً عن حبه لكرة القدم؛ لأن يقوم بتشغيل الشريط!

كيف تضبطين خيانة زوجك ؟؟

دائمًا ما هناك عَرَض لكل مَرَض. والخيانة مرض ينتاب المرء، فيقوده للبحث عن عشيقة.

ويُحكى أن رجلاً متزوجًا كانت له عشيقة. وكان دائم السهر عندها كل ليلة. وبعد سنوات، ماتت زوجته. فظن الناس أنه سيتزوج عشيقته. لكنه سألهم بجدية يشوبها الهذيان: إن تزوجتها، فأين أمضي سهراتي؟

ويصل المريض بالخيانة في بعض الحالات المتأخرة إلى حالة من حالات الحُمَّى المستعصية، فتجده مقتنعًا بوجوب أن تخلص له المرأة. فحتى لو خان هو زوجته مع امرأة أخرى، فإنه يطلب من تلك الأخرى أن تخلص له!

ومن المفجع والمفزع - في مجتمعنا الشرقي - أن تجد الشاب يفتخر في جلساته الخاصة أنه أوقع فلانة وعلانة في شباكه، بينما تجد الفتاة في جلساتها الخاصة تفتخر بأنها صدَّت فلانًا وعلانًا. وإن دل هذا التباين في الافتخار على شيء، فإنما يدل على كارثة في التربية، ساهمت بكل إخلاص في تفشِّي فيروس الخيانة!

وعلى أية حال؛ إن وُجِدَت العشيقة في حياة الرجل المريض بالخيانة، فإنها تجيء ومعها أعراض بعينها. وقد وضع خبير علم النفس بجامعة هيرتفوردشاير البريطانية ريتشارد دايرمان تسع علامات لكشف كذب الزوج، وهي: التأني في الإجابة على سؤال الزوجة، بالتفكير في حُجَّة مُقنعة. ظهور حبَّات العرق على الجبين، دون وجود مؤثر جوي يستدعي ذلك. الاستخدام الزائد لحركة اليدين والتنقل من مكان لآخر؛ بحثًا عن ملجأ أو مهرب. لمس الوجه بالأصابع وعدم تحريك الأعين؛ فترمش أكثر من المعتاد. إصدار أصوات لا داعي لها. اللجوء إلى الإجابات القصيرة التي تخلو من التفاصيل. الحرص على ترتيب الكلام لتفادي الخطأ والتكرار. تحاشي النظر في وجه الزوجة عند الاستماع إلى سؤالها أو عند الإجابة. وأخيرًا؛ التهرُّب من الأجوبة المباشرة التي تحمل معاني واضحة ومحددة.

بينما لجأ آخرون إلى دراسة سلوكيات الزوج ومزاجه النفسي خلال فترات خيانته، وتوصلوا للظواهر الآتية: الكرم المفاجئ والإغداق

المبالغ فيه بالهدايا دون مناسبة. حدوث تغيير في نمط عمله، فيكثر الاتصال بزوجته معتذرًا عن تأخره على الغداء لضرورة إنجاز أعمال طارئة. يصبح الزوج قليل التذمُّر من خروج زوجته من البيت لزيارة الأهل أو الأصدقاء أو الذهاب للتسوق، على العكس من ذلك لا يهتم قط إن تأخرت الزوجة؛ بل ويشجعها على ضرورة الترفيه عن نفسها. يطيل من فترة جلوسه أمام الكمبيوتر بزعم إنجاز أعماله، بينما يكون على الأرجح في حالة «تشييت». تقل حدة شهوته لممارسة الجنس مع زوجته بمعدل متراجع؛ بدعوى أنه مرهق أو مضغوط عصبيًّا. يتأنق في ملابسه بشكل زائد، ويهتم كثيرًا بالاستحمام وحلاقة ذقنه بانتظام، ويحرص على التعطُّر عند الخروج من المنزل. يكثر من إغلاق هاتفه المحمول، كلما غادر البيت. يحدث تغيير في أكلاته المفضلة، ويطلب من زوجته إعداد وجبات لم يكن يطلبها من قبل. يصبح كثير الشكوى من تصرفاتها، ويفتعل مشاكل وهمية كي يخرج من البيت وحده غاضبًا. تكثر الرسائل الواردة إلى هاتفه المحمول، ويحرص على محوها فور قراءتها. تزيد سفرياته للخارج لأداء مهام تتعلق بعمله. يبدأ في الاستماع إلى أغنيات جديدة لم يكن معتادًا سماعها، ويشتري أشرطة جديدة في سيارته. يغيِّر عطره الأصلي بعطر جديد. يبدي اهتمامًا ملحوظًا بجسده، ويشترك في الجيم أو يمارس رياضة الجري. تتقلَّص فترة بقائه مع أطفاله ولا يراهم إلا أثناء نومهم. تكثر سحوباته النقدية من البنك أو من مصروف البيت، ويتعلل بوجود ضائقة مالية. يحرص على إغلاق هاتفه عند النوم ووضعه بجانبه، كي لا يعبث به أحد ... ولا يمكن بالقطع أن يتصف خائن ما بكل هذه الأعراض مجتمعة، وإلا كان

يخون زوجته قبل الأكل وبعده وأثناء النوم كذلك! وأيضًا؛ لا يمكن أن نجزم بوقوع خيانة؛ إن ظهرت بعض هذه الأعراض على زوج ما على سبيل المصادفة. فليس كل مَن غيَّر عطره خائنًا، ولا كل مَن أغلق هاتفه مذنبًا، ولا كل مَن مارس رياضة لعوبًا !

وكي تتأكد الزوجة من أخلاق زوجها؛ فقد توصلوا في الخارج إلى ابتكار جهاز لكشف الخيانة! وهو عبارة عن جهاز منزلي يقوم بفحص ثياب الزوج ومقتنياته الشخصية؛ بحثًا عن سوائل تكون قد خرجت من جسده، وهو مُجَهَّز لإجراء خمسة اختبارات عن طريق استخدام أشعة فوق بنفسجية ونوعين من السوائل المُعَدَّة خصيصًا لهذا الغرض. ويساعد هذا الجهاز على معرفة ما إذا كان السائل الخارج من الجسد هو لرجل أو امرأة، أو لكليهما. فإن كان ممزوجًا بسائل من جسد غير جسد صاحبه، يمكن التأكد وقتها أن الخيانة قد تمت، ويوفر بذلك إجابة يقينية للزوجة المرتابة، ويخلصها من هواجسها المستمرة!

قريبًا بالأسواق المحلية! ... سارعي بالاتصال والحجز!

كيف تقيسين جدية العريس؟؟

من أشد الأمور إزعاجًا للمرأة - في كل زمان ومكان - أن تتعرَّف على شخص ما بهدف الزواج، فيظل يماطلها، ويلاوعها، ولا تخرج منه بعُقاد نافع فيما يختص بمواعيد محددة لإتمام الزواج.

وفي هذا الشأن؛ تقول الدكتورة مي مارون سبع الباحثة الاجتماعية اللبنانية ومستشارة شئون الزواج: "إن المرأة عمومًا - سواء كانت

شرقية أو غربية - لا تخاف من الزواج؛ لأنها تبحث بطبيعتها عن الاستقرار النفسي أولاً، حتى لو كانت مستقلة ماديًّا واجتماعيًّا. صحيح أنها في الشرق تكتسب لقب العانس، لكنها في الغرب لا تعاني من هذه المشكلة إطلاقًا؛ مما يدل على أن الزواج بالنسبة لها حاجة نفسية أولاً. ففي فرنسا - مثلاً - تقام احتفالات الـ«كاترينات»، تشارك فيها كل الفتيات اللاتي لم يرتبطن قبل سن الـ24 سنة، بينما يتم الاحتفال بالشباب على أساس أنهم «سان نيكولا»، إذا لم يتزوجوا قبل الثلاثين".

وتعود مي فتفسر سر تقاعس الرجال قائلة: "إن الذين يترددون أو يخافون من الارتباط هم الذين بلغوا مرحلة النضج العاطفي؛ لأنهم يرون أن الزواج سجن ومسئولية مُلقاة على كاهلهم؛ أكثر مما هو حياة مليئة بالسعادة والتعاون؛ على العكس من الشباب - في بداية العشرينيات - ممن لا يدركون الفروق والاختلافات، لكن العديد منهم يواجهون المشاكل التي كثيرًا ما تنتهي بالطلاق بعد فترة قصيرة من الزواج بمجرد أن يخف التأجُّج العاطفي" ... ومن عجائب هذا التفسير، أن يتعاظم الخوف كلما زاد السن! ولا أوافقها في وصفها بأن ذلك من دلائل النضج العاطفي؛ بل أحسبه من علامات الطفولة المتأخرة!

ونعود إلى سؤالنا. فالمرأة في كثير من الأحيان يخدعها حَدسُها وتخونها فراستها عندما تحب. فهي لا تتمكن من التمييز بين رجل جاد في رغبة الزواج، وبين رجل يأخذ ذيله - بعد أن لعب به! - في أسنانه؛ إن شعر بضرورة أن تتخذ العلاقة شكلاً رسميًّا.

ونذهب إلى الأمريكي جون مالوي الذي يقدم النصح في كتابه

«الرجال والزواج»؛ قائلاً: "إذا كنت غير متأكدة من نوايا رجلك، فلاحظي جيدًا كيف يتصرف، واستمعي للطريقة التي يتحدث بها عن مستقبله، ولا تدعي الفرصة تفوتك للحصول على عريس مضمون، وستعرفين من طريقة تفكيره إذا كان مستعدًا أم لا".

بينما تشير الباحثة الأمريكية كارول مورجان إلى تفصيلة صغيرة في منتهى الأهمية، فتقول: "يُلاحَظ على الرجل أنه جاهز للزواج عندما يحدق بشوق في أطفال الغير، ويتوقع لك أنه سيكون لديك أطفال رائعون" ... ويحضرني في هذا الشأن موقف لأحد هؤلاء الرجال غير الجادين؛ إذ كان ينظر إلى خطيبته في فزع، ويقول لها: شكلك كده عايزة عيال على طول! وكان دائم الحديث عن رغبته في تأجيل الخلفة لسنوات؛ حتى انتهى به الأمر إلى الفلسعة من المسئولية تاركًا خطيبته وعيالها الذين أنجبتهم في خياله المتوجس!

في حين تقول الكاتبة أبريل ماسيني: "عندما يكون الرجل مستعدًا للزواج، يبدأ بالتصرف كزوج. فمثلاً؛ يبدأ في عمل خطط لمستقبل ما بعد الزواج، ويحرص على تقديمك إلى جميع أصدقائه وأفراد عائلته، ويريد إخبارك بتفاصيل يومه، كما تكون لديه رغبة شديدة في الاستماع إليك دون ملل على الإطلاق".

وتبدو الدكتورة آن لانجفورد - المتخصصة في علم النفس بجامعة كولومبيا - أكثر تحديدًا في كتابها «متى يتزوج الرجل؟»؛ إذ تقدِّم مجموعة من النصائح الذهبية للنساء للتمكن من التفرقة بين الرجل الجاد في الزواج، والرجل اللعوب، أو الذي يعاني من مشاكل الوحدة والاضطراب العائلي ويبحث عن فتاة تسلِّيه وتملأ فراغه. تقول آن: "هناك سبع علامات للتعرف على الرجل «الوحيد» الذي

يكسر بك حدَّة وحدته: يعرف كثيرًا من الناس لكن أصدقاءه الحقيقيين محدودون. يحب الإكثار من السفر. يهوى استخدام التليفون لتسليته في أوقات فراغه. حياته الاجتماعية غير منظمة وأشياؤه الخاصة مبعثرة. علاقته مع والديه وإخوته غير وثيقة ومضطربة. يكثر من التدخين أو التسوق وإنفاق راتبه فيما لا يفيد. قبل التعرف إليك كان قد خرج لتوِّه من قصة حب فاشلة".

بينما تناشد آن المرأة صراحة بضرورة التخلص من الرجل اللعوب وإلغاء وجوده من حياتها إلى الأبد، وتبرع في وصف ملامحه قائلة: "إذا كان مثلاً يقول لك إنه لا يفكر في الارتباط في الوقت الحالي. وبدلاً من أن يحاول تغيير ما يعرقل ارتباطكما، تجدينه يُعقِّد الأمور، ويؤجِّل ميعاد الالتزام بإجراء رسمي مرَّة بعد الأخرى. وإذا كان لا يحاول الإدخار، أو يأمل في شراء خاتم الزواج. وإذا كان يتصرف تصرفات غير ناضجة ولامبالية، ويتكلم بصيغة أنا وليس نحن. وتجدينه يعتبر الزواج دائما أمرًا مثيرًا للشفقة والمتاعب وعبئًا ثقيلاً. ويجعلك تبكين باستمرار؛ فهو عديم الثقة، كذاب، محتال، ولعوب. ويسارع إلى الهرب من هذه العلاقة إن ضغطت عليه أو حاولت تقييده بأي التزامات".

ومن المؤكد أن الرجل هو الرجل؛ في دراسات الغرب وفي تصرفات الشرق. ويحضرني موقف رجل سعودي نجح في دخول الموسوعة القياسية بالزواج الأقصر مدة في التاريخ! ... فقد لجأ الرجل إلى محكمة العقود بجدَّة بعد خمس دقائق فقط من الزواج؛ طلبًا في استخراج صك طلاق زوجته. وقد حدث ذلك إثر مشادة كلامية بين العريس ووالد العروس بسبب ألفين من الريالات. وكان والدها قد

قالـوا !

طالبه أن يدفع المهر المتفق عليه، والمُقدَّر بـ 10 آلاف؛ إلا أنه قدَّم له 8 آلاف فقط، واحتسب باقي المبلغ ضمن تكاليف وليمة عشاء أقامتها أسرته احتفالاً بالخطبة؛ مما أثار حفيظة والد العروس الذي أصر على حصوله على المبلغ كاملاً؛ لينتهي الخلاف السريع بأسرع طلقة في العالم. طلقة رصاص مندفعة من مسدس الحياة الزوجية لزوج قاتل، لعوب، متلاعب، وغير جاد!

وكما أن ألوفًا من المُشتغلين بالأدب قد استعذبوا التجنِّي على المرأة، والاستهزاء بالزواج، والحط من شأن الحب، فإن عددًا كبيرًا منهم أبَتْ فطرتهم إلا التعبير المُنصف عن حقيقة مشاعرهم؛ دون أن يعتبروا في ذلك انتقاصًا، لا من رجولتهم، ولا من رجاحة عقولهم؛ ولا من قدرتهم على السخرية. وأورد هنا بعضًا من أجمل عباراتهم. وأحاول جاهدًا أن أضيف إليها تعليقًا يؤيدها؛ فلا يبخسها قدرها، ولا يشوِّه نُبْلها. والله المستعان.

"قالوا: لكي يبقى الرجل فاضلاً عليه أن يقاوم شهواته. أما المرأة، فعليها أن تقاوم شهواتها وتقاوم الرجل".

فالشهوة جزء من طبيعة البشر. وعلى المرء أن يجاهد نفسه لضبطها. ويبقى المزعج في الأمر، أن تكون المرأة مطالبة بضبط النفس وضبط أعين الرجال المقتحمة لجسدها عنوة، والحفاظ على نفسها من وقاحة المجتمع. ولي نصيحة أقدمها لكل امرأة تعاني من بصبصة الرجال. إن شعرت بعيون ذكورية تفتش في جسدك، افضحيها بالنظر المباشر إليها. فمعظم وقاحة الرجل تنهار عند كشفها. ويشيح ببصره

بعيدًا عنك؛ متمتمًا أستغفر الله العظيم. لقد كان يستغفر الله لك لأنك فتنته؛ لا له لأنه اعتدى عليك بصريًّا. لا يهم. دعيه ينشغل بالتمتمة؛ أفضل من انشغاله بالبحلقة!

"قالوا: إذا ارتكب رجل من الرجال حماقة، قال الرجال: يا لغبائه! وإذا ارتكبتها امرأة، قالوا: يا لغباء النساء"!

وهذه هي مهزلة القولبة والتنميط stereotype التي وقع فيها معظم المفكرين على مر العصور. فلو أننا تأملنا حقيقة تاريخية تقول إن حواء قد خُلقت من ضلع آدم، وحقيقة رياضية تقول إن البعض جزء من كل، فلابد لنا أن نستوعب أن ما تتصف به أية امرأة من صفات سيئة، هو جزء من كرامات الرجل ونفحاته!

"قالوا: الحب: نيتروجين الهواء. أوكسيجين الأرواح. هيدروجين الماء".

وماله! وأمونيا الثلاجات. وفريون التكييفات. وكيروسين الدفايات. المهم أن تتحد الكيمياء مع البيولوجي، ويسفر الحب عن زواج في نهاية الأمر!

"قالوا: يظل الرجل نصفًا حتى يجد زوجة".

ولا يصير رجلاً بحق، إلا إذا رُزق بطفل. عندئذ فقط تنتهي طفولته هو!

"قالوا: أكبر إهانة للمرأة أن تطلب منك حُبًّا، فتعطيها صداقة".

إن هذا يضع العلاقة المتكافئة في إطار من التسوُّل، وألوم المرأة هنا

على تنازلها عن كبريائها وعزة نفسها. المرأة لا تَطْلُب، المرأة تُطْلَب. يُحْلَم بها؛ بل يُؤْمَل أن يُحْلَم بها؛ فَتَمِنُّ على الرجل إن هي زارته في أحلامه!

"قالوا: الرجل يحبك لأنه معجب بك، والمرأة تحبك لأنك معجب بها".

وهذا لا يعيبها على الإطلاق؛ بل أجده شعورًا مثاليًّا نبيلاً؛ فهي قط لا ترفض مشاعر صادقة، وتحرص على مبادلتها حبًّا بحب؛ على عكس الرجل الذي قد يتلذذ بفكرة أن تحبه أكثر من امرأة، ولا يمانع في مواربة الباب، وفي التلاعب بالمشاعر، وفي الاستجابة المصطنعة من أجل تسلية فحولته ورجولته. فامرأة واحدة لا تكفي نزعات الرمرمة الذكورية!

"قالوا: أن نحزن على إنسان نحبه: أجلب لسعادتنا من أن نعيش مع إنسان نبغضه".

لذا أحذِّر كل فتاة صُدِمَتْ في حبيب لم يستحقها، ألاَّ تسارع بتعويضه بقبول مَن لا ترتاح نفسها إليه. إن التأني في الزواج بضع سنوات، أهْوَن كثيرًا من المعاناة فيه باقي السنوات. ووجع ساعة ولا كل ساعة! ثم إنهم كذلك قالوا: "من يتزوج على عجل، يندم على مهل"!

"قالوا: المرأة معشوقة الرجل في صباه، ورفيقته في رجولته، وممرضته في الشيخوخة".

وتلخيصًا لدورها نقول أنها ... حياته!

"الفرق بين الحب قبل الزواج والحب بعده؛ كالفرق بين نار المشعل، ونار الموقد. الأول: يتوهَّج ولا يُدفئ. والثاني: يُدفئ بلا توهُّج".

يوسف السباعي

وهذه حقيقة مؤكدة يجهلها كثير من الرجال الذين يهدمون المعبد فوق رؤوسهم ورؤوس مُحبِّيهم قبل الزواج. فالحب بلا زواج هو حصان بلا عربة، والزواج بغير تفاهم هو عربة بلا حصان. والمطلوب هو الانسجام والارتياح ووحدة الهدف. فإن لم يفعل المُحب ذلك، فسوف تمسك فيه النار، وتحرق قلبه وقلب شريكه!

"نحن النساء: مخلوقات قوية في منتهى الهشاشة. ننكسر إن فارقنا الآخرون، وننهار إن كُنا نحن المفارقات"!

إنجي عمرو

فلم يخلق الله امرأة تسعد بالفراق. ولم يخلق امرأة تسعى للفراق. فإن فارقها هو، فقد آذاها وجرح كبرياءها. وإن فارقته هي، فتأكَّد أنه لم يترك لها خيارًا آخر. تمامًا مثل القفز من ناطحة سحاب؛ هربًا من قنبلة زمنية. فلا الصبر يُنْجِي، ولا القفز يُحْيِي!

"الفتاة التي أحبها ليس لها ماض. فقد وُلدت يوم أحببتها".

مصطفى أمين

هذه عبارة من وحي الخيال يا كاتبنا المثالي. فالرجل الشرقي يستعرض ماضيه وزيجاته ومغامراته؛ بمجرد نزوله من عليائه وقبوله الارتباط بفتاة الحاضر. يحكي لها عن أمجاده من باب التفاخر بالماضي، من باب الزُهد في المستقبل، من باب التهديد للحاضر. أما حبيبته؛ فالويل لها إن أحبَّت قبله، إن ارتبطت قبله،

فهي "خَرْج بيوت" في هذه الحالة. والبضاعة المعيبة تُرد وتُستبدل كما ينص قانون حماية المستهلك - الذي هو الرجل - والهالك التي هي المرأة! وكما يقول اللورد والشاعر البريطاني جورج بايرون: "تتلخَّص مأساة الحب في أن الرجل يريد أن يكون أول مَن يدخل قلب المرأة، وأن المرأة تريد أن تكون آخر مَن يدخل قلب الرجل"!

"إذا كان الديك هو الذي يصيح، فإن الدجاجة هي التي تبيض".

رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت ثاتشر .. (1979-1990)

وهذا هو مبدأ خدوهم بالصوت ليغلبوكم!

"أقل الناس حُبًّا أكثرهم تحدُّثاً عن حبه وإفشاءً لأسرار غرامه".

الأديب الإنجليزي ويليام شكسبير

وهكذا هي الدنيا: إما أن تُحسن الكلام، وإما أن تُحسن الفعل. ولم يولد قط ذلك الذي يبيع كلامًا وينتج أفعالاً!

"لقد وجدت الزواج مختلفًا تمامًا عما فكرت أو تصورت، فهو أحسن وأعمق وأكمل علاقة بين رجل وامرأة متفاهمين متحابين".

أنيس منصور

وهذا اعتراف جدير بالتأمل وبالتسجيل. فأديبنا الراحل الكبير يعترف في لحظة صدق وصفاء، وأتاب وأناب، وأكد أن الزواج شيء آخر غير ما اعتقد. والذي يقرأ عددًا من كتبه، وعموده الأسبوعي في أهرام الجمعة، لا يتخيل قط أن يصدر عنه مثل ذلك الاعتراف.

ثم إنه قد عاد مرة أخرى ليقول في عبارة أكثر براعة: "إن الحياة الزوجية كالبسكليت التي ندفعها بأرجلنا إلى الأمام. فإذا لم نُحَرِّك أرجلنا، فإنها لا تنتقل. وهي لا تُحَرَّك برجل واحدة ولكن برجلين، وقلبين؛ لأنها ليست ملكًا لواحد، وإنما لاثنين، اشتركا فيها برأسي مال وبمجهودين، وفازا في المباراة معًا"!

"الحب هو جاذبية نيوتن، وهو الفراغ المنحني عند أينشتاين، وهو العشق عندنا نحن البشر".

د. مصطفى محمود

أخشى ما أخشاه - يا فيلسوفنا الراحل - أن الحب كذلك – لدى بعض الرجال – هو نظرية الانتقاء الطبيعي عند داروين. فيفتر العشق بالتعوُّد، ويموت الشوق إذا ما كبرت الحبيبة في السن؛ فيسود مبدأ البقاء للأجمل، ويتعاظم السعي نحو انقراض مَن عجزن عن التطور ومواكبة تكنولوجيا العصر من نفخ وشفط ونحت. وهو ما يؤدي في النهاية إلى ظاهرة النشوء والارتقاء. نشوء أجيال جديدة من فتيات معامل التجميل؛ تتسبب في إفناء كل معاني الحب النبيلة غير المبتذلة، وترتقي بالرذيلة إلى أعلى درجات الاصطفاء البيولوجي!

"نظلم الحب عندما نصفه بأنه ... نار"!

أحمد رشدي صالح

شخصيًّا، أفضِّل وصفه بأنه ... نور!

"قد يُفَكِّر العقل طوال الحياة، ولا يقدر أن يُهَذِّب النفس، كما

يُهَذِّبها الحب في يوم واحد".

المفكر الأمريكي رالف والدو أمرسون

وهذه حقيقة لا يعرفها إلا المجربون؛ بدءًا بحب الله، ومرورًا بحب الوطن، وانتهاءً بحب شريك الحياة. الحب تهذيب وإصلاح، لا بمنطق الحبس في السجون، ولكن بمنطق السمو في الشجون!

"ليست الفضيلة أن تتجنَّب الرذيلة. الفضيلة ألاّ تشتهيها".

الكاتب المسرحي الأيرلندي برنارد شو

وهذه عبارة تتشابه في مثاليتها مع أحكام دينية عظيمة. ومن المؤكد أن الالتزام بمثل هذا المعيار الصعب في المعاملات، يجعل الرجل الفاضل، هو الرجل ... اللي فاضل!

فسيولوجي ..

سوسيولوجي ..

سيكولوجي !

هذا الفصل للمتزوجين فقط. وكذلك للعُزَّاب الذين فقدوا الدافع للزواج. وأيضًا لغير المتزوجين الذين يشاورون عقولهم.

هل نسيت أحدًا؟!

هو .. وهي!

هناك فوارق فسيولوجية بين الرجل والمرأة. هي فوارق لا يترتب عليها امتيازات، بقدر ما تنشأ بسببها وظائف متباينة ورؤى متفاوتة حيال أمور الحياة.

من الثابت علميًّا أن حجم مخ الإنسان من أهم أسباب تطوره العقلي من أطوار الحيوانية إلى المدنية. ويزن المخ في المتوسط 1.4 كجم، بينما يزن مخ المرأة في المعتاد 150 جرامًا أقل من المتوسط. ومع ذلك؛ فالوزن ليس إلا واحدًا من عوامل عدة لقياس إمكانات العقل البشري، فمخ أينشتاين [12]-

(12) اتضح أن للعالم الجليل إسهامات في مجال العلوم الاجتماعية وقضايا المرأة والزواج، إذ سئل يومًا عن نظرية النسبية وكيف يمكن تبسيطها للمواطن العادي، فقال: ضع يدك على فرن ساخن لمدة دقيقة، وستشعر أنها ساعة. واجلس مع فتاة حسناء لمدة ساعة، وستشعر أنها دقيقة. تلك هي النسبية!

على سبيل المثال - كان ينقص كثيرًا عن المتوسط العام. وفيما يتعلق بوظائف المخ؛ فإن كلا الجنسين يقوم بمعالجة ثلاثة من الأنشطة في مناطق مختلفة بالمخ كما يلي: اللغة: تعالج النساء اللغة في الجزء الأمامي من الفص الأيسر، بينما يعالج الرجال اللغة في الجزءين الأمامي والخلفي من الفص نفسه. الإدراك البصري والمكاني: يستخدم الرجال الفص الأيمن فقط، بينما تستخدم النساء كلا فصي المخ. الانفعالات: تتركز استجابات الرجال الوجدانية في الفص الأيمن، بينما تنتشر لدى النساء في كلا الفصين. ويقول العلم إنه حينما تتركز إحدى الوظائف بشكل كبير في إحدى مناطق المخ، فإنها تتم بتشويش أقل. ونستخلص من ذلك أن تركُّز هذه الوظائف يُسَهِّل على النساء استخدام اللغة، بينما يتمتع الرجال بأداء مكاني بصري أفضل، في حين لا يؤدي تركُّز الانفعالات لدى الرجال في الفص الأيمن إلى استقرارها، بقدر ما يذهب بها إلى التنوع!

كما تفرز أجساد النساء هرمون الأوكسيتوكسين أوقات التوتر، فيختلط بالهرمونات الجنسية مثل الأستروجين، فيؤهلهن ليصبحن أكثر ميلاً لتكوين العلاقات الاجتماعية، وأكثر ارتياحًا عند وقوعهن تحت وطأة التوتر. أما هرمون التستوستيرون لدى الرجال؛ فيولِّد رد الفعل التنافسي، وهو ما يسميه العلماء بـ «الكر والفر».

وبسبب الفوارق العصبية والهرمونية؛ يختلف إدراك الرجال والنساء للأشياء بشكل منهجي؛ وإن كان لا يصل ذلك إلى التناقض. ومع ذلك يميل علماء النفس إلى إشاعة جو من البهجة بشأن هذا التباين الإدراكي، وتُذكر هذه القصة بهذا الخصوص:

كانت إحدى مُعلِّمات اللغة تشرح للتلاميذ أن الأسماء في اللغة

الفرنسية – وعلى النقيض من مثيلاتها في اللغة الإنجليزية – يتم تصنيفها نحويًّا كمذكر أو مؤنث، فكلمة منزل في الفرنسية مؤنثة، وقلم حبر في الفرنسية مذكر. وهنا سأل أحد الطلاب الذين يشعرون بالحيرة: وما نوع كلمة كمبيوتر؟ فكَّرت المعلمة البشوش مليًّا، ولم تجد إجابة محددة، فالكلمة ليست فرنسية الأصل، لكنها أرادت على سبيل إعمال العقول وتشغيل الأذهان أن تبحث عن إجابة لدى تلاميذها. فقامت بتقسيم الفصل إلى مجموعتين حسب نوع الجنس، ثم طلبت منهم أن يحددوا إذا ما كانت كلمة كمبيوتر اسمًا مؤنثًا أم مذكرًا؛ مع ذكر أربعة أسباب داعمة لهذا الرأي.

وجاءت النتيجة كالتالي: قررت مجموعة الذكور أن أجهزة الكمبيوتر لابد وأن تكون مؤنثة للأسباب الآتية: ما من أحد سوى صانعها يفهم المنطق الداخلي لها. اللغة الأم التي تستخدمها تلك الأجهزة في التواصل مع بعضها البعض غير مفهومة لأي شخص آخر. أصغر الأخطاء يتم تخزينها في ذاكرة طويلة الأمد لاحتمال استرجاعها فيما بعد. بمجرد اقتنائك إحداها؛ تجد نفسك تنفق نصف مُرَتَّبك على شراء ملحقات لها.

بينما أكدت مجموعة الإناث أن الكمبيوتر لابد وأن يكون مذكرًا للأسباب التالية: عليك أن تقوم بتشغيله كي تجذب انتباهه. به الكثير من البيانات؛ إلا أنها مع ذلك عديمة الدلالة. من المفترض أنه يساعدك على حل المشاكل؛ إلا أن المشكلة قد تكمن فيه ذاته نصف الوقت. بمجرد التزامك بأحدهم؛ تدرك أنك لو كنت قد انتظرت فترة أطول قليلاً، لأمكنك الحصول على موديل أفضل!

معًا سنتغيَّر!

"الشيء الوحيد الذي نعرفه عن الزواج أنه مليء بالتغييرات، فعندما تتزوج عليك أن تتعلم تمامًا كل شيء من جديد، بداية مما يجب أن تفعله عندما تجد أن أنبوب معجون الأسنان مضغوط من الجزء السفلي، وحتى كيفية التدبير المشترك للأمور المالية عندما يكون أسلوبك في التعامل مع المال يختلف عن أسلوب شريك حياتك".

من كتاب Men Head East، Women Turn Right

سابرا بروك

سؤال طرحته الأبحاث: مَن الأفضل: الرجال أم النساء في التعامل مع المتغيرات؟ ثم أجابت عليه قائلة: إن النساء هن الأفضل في التعامل مع متغيرات عديدة في الوقت نفسه. أما الرجال؛ فهم يستفيدون من هرمون الذكورة التستوستيرون، والذي يساعدهم على التركيز أكثر من النساء، لكنه يتدخل في مقدرتهم على التأقلم مع متغيرات متعددة في وقت واحد.

وفي كتاب Men Head East، Women Turn Right، تقوم المؤلفة سابرا بروك بمعاونة د. جوزيف دولي بجدولة أنماط التغيير الطارئة على المرأة والرجل في موضوعات مختلفة. فيبدآن بجدول يوضِّح آلية تعامل الطرفين مع التغيير، ارتباطًا بالعمر على النحو التالي:

المرأة وهي تنظر في المرآة: في سن 8: ترى أميرة من حكايات الأساطير. في سن 15: ترى صورة شخص بدين أخرق ذي بثور، وتشعر بأنها تريد البقاء في المنزل. في سن 20: ترى صورة

الشخص نفسه، لكنه يخرج لمقابلة الناس في أي من الأحوال. في سن 30: هي لا ترى شيئًا تحبه، لكنها مشغولة جدًّا لدرجة أنها لا تجد وقتًا لكي تنزعج. في سن 40: لا ترى شيئًا تحبه، لكنها تقول: على الأقل يبدو مظهري نظيفًا، ثم تذهب إلى أي مكان على أية حال. في سن 50: ترى امرأة، ثم تذهب لكي تعيش حياتها. في سن 60: ترى امرأة وتقول: لو ينظرون إليَّ الآن. في سن 70: سعيدة لرؤية امرأة تعيش وتتنفس وتستمتع بحياتها. في سن 80: تضع زهرة في شعرها وتخرج لكي تمتع نفسها. في سن 90: لا تستطيع أن ترى، لذلك فهي لا تقلق بخصوص أي شيء!

الرجل وهو ينظر في المرآة: في سن 8: يرى بطله الرياضي. في سن 15: يرى شابًّا صغيرًا يريد أن يكون أكبر وأكثر نضجًا. في سن 20: يرى شخصًا ما ينتظره العالم، يتميز بالصغر والقوة والمستقبل أمامه مشجع. في سن 30: يرى النجاح ويركِّز على التقدم للأمام في الحياة والمستقبل العملي. في سن 40: يرى شَعرًا أقل وبعض الشعر الرمادي، ويبدأ في البحث عن شيء آخر، ولكنه لا يعرف ما هو. في سن 50: يرى فقط شَعرًا رماديًّا ويتخيل أنه من الأفضل أن يفعل شيئًا سريعًا قبل أن يضيع كله. في سن 60: يرى المشهد نفسه ويعتقد أنه المشهد الأخير في الحياة ويستمتع بأي شيء حلو. في سن 70: سعيد لرؤية أي شَعر، ويعتقد بأنه ما تم قد تم ويواصل الاستمتاع به. في سن 80: مندهش لأنه ما زال على قيد الحياة، ويقضي الكثير من الوقت في النظر إلى الماضي وما قد فعله، وما زال يستمتع بما تبقى من شَعره. في سن 90: لا ينزعج بالنظر في المرآة مطلقًا، ويقضي كثيرًا من الوقت نائمًا،

ولكنه في أحلامه ما زال لديه شَعْر!

ثم يتوجه بحثهما نحو التعامل مع التغيير طبقًا لعلاقة العمر بالشعور بالرومانسية، فجاءت النتيجة كما يلي:

حياة المرأة الرومانسية: في سن 8: لا تهتم بالأولاد. في سن 15: تحب الأولاد وتحاول أن تتصور ما يريدون. في سن 20: الرجال يتصارعون لجذب انتباهها. في سن 30: تستطيع أن تشعر بالتغيرات البيولوجية التي تنتابها. في سن 40: حان الوقت أو يمضي الوقت في البحث عن الشريك المناسب. في سن 50: تشعر بالغضب من النساء الصغيرات. في سن 60: تفهم الآن لماذا تجري النساء عمليات تجميل. في سن 70: تود أن تعثر على رجل يستطيع القيادة ليلاً. في سن 80: تود لو تعثر على رجل يستطيع القيادة نهارًا. في سن 90: تشعر بالسعادة فقط في أن تتكلم.

حياة الرجل الرومانسية: في سن 8: يكره الفتيات. في سن 15: مهتم بالفتيات ولكنه يخافهن. في سن 20: يحب الفتيات ولم يعد يخافهن. في سن 30: النساء يردنه الآن. في سن 40: النساء يردنه الآن أكثر. في سن 50: أصبح مسئولاً الآن عن المشهد الاجتماعي. في سن 60: يشعر برغبة في أن يكون مع امرأة متميزة. في سن 70: يشعر بالسعادة في أن يكون مع أية امرأة. في سن 80: يشعر بالسعادة في أن يكون مع أي شخص. في سن 90: سعيد بأن يكون كائنًا وموجودًا.

ومهما تكن أنماط التغيير، يبقى أمر واحد غير قابل للتغيير: أن الرجل والمرأة ليسا في موقع منافسة ومقارنة ومزاحمة نحو مساواة فارغة من محتواها. الرجل والمرأة في موضع تكامل

وتعاون وشراكة. ولهذا السبب وحده ولهذه الحكمة وحدها، خلقهما الله معًا!

ما فوائد ممارسة الحياة الجنسية في إطار الزواج؟

الجنس ينعش المخ وينشطه. فالإثارة الجنسية تشعل شرارة المُرْسَلات والمُوَصِّلات العصبية، داخل مخ الإنسان؛ الأمر الذي ينبه الغدة النخامية، والتي بدورها تشحذ كل طاقاتها للعمل، فيساعد الإحساس بالنشوة على توقف إنتاج هرمون الضغط العصبي الكورتيزول، ويوقف كل الأفكار السلبية مثل الإحساس بالظلم أو القلق، كما يحسِّن النشاط الجنسي من تدفق الدم إلى المخ على المدى الطويل. وكذلك يفرز الجسم مادة الإندروفين التي تشبه الهرمون في خصائصها، ويطلقها الدم عند الممارسة والوصول إلى النشوة. وهذه المادة هي المسئولة عن البهجة وإزاحة الألم، ويفرزها الجسم في حالات أخرى مثل أخذ حمام ساخن، أو التريُّض أو أكل الشيكولاتة!... يعني الجنس يعمل على مكافحة الاكتئاب!

الجنس له فوائد بدنية مذهلة، ويساعد على الاحتفاظ باللياقة. فاللقاء الجنسي الواحد يحرق ما بين 200 إلى 400 سعر حراري. يعني لمحبي الريجيم، الجنس يساعد على التخسيس!

ويساهم الجنس في تقوية الجهاز المناعي. فالممارسة المنتظمة تسفر عن إنتاج مادة كيميائية تُدعى (Immunoglobulin A (IgA التي تحارب العدوى والالتهابات، كما تزيد من إنتاج الخلايا الليمفاوية المكوِّن الأساسي لجهاز المناعة، وتساعد الجسيمات المضادة داخل جسم الإنسان

على الوصول إلى أعلى نسبها؛ مما يعطيه مناعة قوية ضد معظم الأمراض ... يعني الجنس أجدع من فيتامين سي والأستراجالوس والزنك مجتمعين!

ويحسِّن الأداء الجنسي من تدفق الدم والدورة الدموية بصورة عامة، ويزيد من نسبة الأكسيجين في الدم وينظِّمها، وكذلك يساعد على تدفق الدم تحت طبقات الجلد ويجعله أكثر نضارة وحيوية، كما يحافظ على الأوعية الدموية في حالة طيبة. ويعطي حماية بعيدة المدى من الإصابة بأمراض القلب المنتشرة ... يعني الجنس يورِّد الخدود الشاحبة ويداوي القلوب العليلة!

وقد يعلق ناصح فيقول: إذا كانت الممارسة الجنسية مفيدة إلى هذه الدرجة، فإن فائدتها غير مرتبطة بالزواج. دعنا نمارس الجنس ونظفر بالامتيازات بعيدًا عن الأعباء!

ولهذا الناصح – ومن المؤكد أن أحدهم يقرأ الكتاب الآن! – أقول: لا يا حدق. كلامك غير دقيق. فناهيك عن الوازع الديني الذي لابد وأن يرجِّح لديك الممارسة الشرعية للجنس على ما سواه؛ فإن الأبحاث الطبية أثبتت أن معظم هذه الهرمونات والأنشطة السحرية المنبثقة عن الممارسة، ترتبط ارتباطًا كليًّا بالإحساس بالأمان والطمأنينة والسلام النفسي للمُمارس، وهي أمور لا وجود لها في حالة الجنس المُحَرَّم ... أما إن كنت لا تشعر بتأنيب ضمير أثناء الممارسة خارج إطار الزواج، فأنصحك بعدم إضاعة وقتك في القراءة لي، ووقتي في الكتابة إليك!

ما أضرار إدمان العادة السرية ؟

تذهب حالات كثيرة للعلاج النفسي بسبب إدمان العادة السرية قبل الزواج. وهم لا يذهبون من باب الرفاهية والفحص الدوري الروتيني. هم يذهبون لأن هذا اللون من الإدمان قد أصابهم في أعز ما يملكون، في رجولتهم!

ولهذه العادة أضرارها النفسية والجسمية. فقد أثبتت الأبحاث أن عجزًا جنسيًّا يصيب بعضهم؛ لأنهم فيما مضى كانوا يمارسون العادة من فوق الملابس، لذا فهم يظلون محتفظين بانتصابهم حتى اللحظة التي يخلعون فيها ملابسهم للاقتراب من زوجاتهم. هنا يحدث لهم ارتخاء لسبب نفسي؛ يحول دون مواصلة العلاقة.

وإذا كان هذا الإدمان يصيب القلة بالعجز الجنسي الكامل، فإنه يصيب الأغلبية بسرعة القذف أو القذف المبكر؛ وهو شكل من أشكال العجز النسبي. ويدخل هؤلاء في إطار الإعاقة النفسية. فإدمان هذه العادة قد خلق لديهم إحساسًا متضخمًا بعقدة الذنب، وقلة القيمة، والميل إلى العزلة، وانخفاض الاعتبار الذاتي، كما يزيد من تخوفهم من الاختلاط بالناس، ويرفع درجات الإحساس بالإحراج والخجل والخوف، وقد يصل إلى الفوبيا. ولعل القذف المبكر هنا هو نوع من الهروب السريع والاشمئزاز النفسي من وضع أصابهم في الماضي بأحاسيس سلبية عديدة.

غير أن الطب النفسي قد أضاف سببًا آخر للقذف المبكر، يرتبط كذلك بعادة أخرى أكثر خطورة؛ وهي الزنا قبل الزواج. فالقذف السريع قد يحدث نتيجة التجربة الجنسية الأولى والتي كانت سريعة جدًّا؛ كأن يكون الزاني قد ارتاد بائعة هوى صاحت فيه في زهق

وطالبته بسرعة الإنجاز؛ لأنها مشغولة بعشرات الزبائن من بعده! وكذلك إن كان الرجل قد اعتاد أن يصطحب الفتيات في سيارته، وينهي الممارسة الجنسية في سرعة خوفًا من أن يضبطه أحد المارة؛ فضلاً عن الشرطة! ... وهنا يجدر بنا أن نذكر عبارة مثيرة للتأمل للطبيبة الفرنسية كريستيان فيردو من كتاب موسوعة الحياة الجنسية، إذ تقول: "لا يجوز التسرع في إتمام العملية الجنسية، وإلا نكون كالسائح المستعجل الذي يريد أن يزور عشرة بلدان في ثلاثة أيام"!

وقبل أن نختتم الفقرة، نؤكد على حقيقة علمية. إن أضرار العادة لا تتوقف عند حدود الفراش؛ بل إن مدمنيها يعانون من الإنهاك البدني والذهني المستمر، عدم القدرة على إنجاز العمل، نحول في الجسم، ارتعاش بالأطراف، خفقان بالقلب، ضعف في البصر والذاكرة، اختلال الجهاز الهضمي، إصابة الرئتين بالتهابات قد تؤدي إلى السل، بل ويصاب بعضهم بالصلع المبكر!

باختصار ... بقايا رجل!

ما حقيقة المُنَبِّهات الجنسية المُخَدِّرة؟

يتوهم بعض الرجال أن المُخدِّرات والمُسْكرات تساعد على إثارتهم جنسيًّا، وتطيل من أمد العلاقة، وتزيد من المتعة والنشوة؛ بل ويحرص بعضهم على إهداء الأصدقاء زجاجة شامبانيا أو جرعة حشيش؛ قبيل ليلة الدخلة؛ كنوع من المجاملة وشحذ الهمة على حُسن الأداء. وهذه مجرد أكاذيب!

مبدئيًّا، هؤلاء الرجال المتعاطون يفقدون آدميتهم خلال الممارسة الجنسية. ومن المؤكد أن الإنسان لابد وأن يحتفظ بإنسانيته؛ حتى لو اشترك مع الحيوان في أفعال بيولوجية!

فنسمع عن أولئك الذين يتعاطون، ثم يعودون إلى منازلهم قرب الفجر، ويوقظون زوجاتهم من النوم العميق، ويبدأون في ممارسة أقرب إلى الاغتصاب منها إلى العلاقة الزوجية. وبسبب مفعول ما يتناولونه؛ فإنهم يتحولون إلى ماكينة جنسية لا متعة فيها ولا حميمية، وقد يستمر الاغتصاب حتى الصباح. فيُشبع الرجل غريزته الحيوانية، وتدخل المرأة في حالة من الاكتئاب العميق.

ولقد استبعد العلماء عددًا من المواد الذائعة الصيت من قائمة المهيجات الجنسية المقترحة، وذلك بسبب إضرارها بالصحة، ولاقتصار مفعولها على تعطيل الضوابط النفسية والأخلاقية، وقاموا بتسميتها بالمنشطات الجنسية الكاذبة. ويأتي على رأس القائمة الماريجوانا، والحشيش، والكوكايين، والكحوليات.

فالماريجوانا والحشيش يضعفان من قدرة الإنسان على الإحساس بالزمن، فيتوهم بطول الرعشة الجنسية. ويكتسب شعورًا إيحائيًّا بالنشوة لا تلبث أن تقوده إلى حالة من الهذيان، ويعقبه – عند الإفاقة – الإحساس بالاكتئاب. ورغم أن تناولهما بكميات قليلة، قد يُغذِّي الرغبة الجنسية الجامحة بسبب خصائصهما المبهجة؛ إلا أن تناولهما بكميات كبيرة يعرِّض العملية الجنسية بأسرها للفشل. وعلى المدى الطويل؛ يصاب 20 % من المدمنين بالعجز الجنسي الكامل؛ مقابل إصابة 10 % من المتعاطين المشاركين على فترات متباعدة في جلسات الأصدقاء التحشيشية.

أما الكوكايين؛ فيتم تصنيفه على أنه واحد من أشد المنبهات الجنسية تأثيرًا. ويطلق عليه العارفون شمبانيا المخدرات!؛ إذ يمنح متعاطيه إحساسًا رائعًا بالنشوة والإثارة الجنسية، والقوة والصلابة، مع تيقُّظ الحواس وتأخر القذف. وتستمر هذه المشاعر «العظيمة» لمدة ثلث ساعة، ثم يحل الاكتئاب بعدها، ويشعر الرجل فجأة بالتعب الشديد، وتختفي لديه الرغبة الجنسية بالكامل، وغالبًا ما يجد صعوبة في الاحتفاظ بالانتصاب. يعني سمعة زائفة، وفحولة زائلة، وبطولة من ورق!

ثم نأتي إلى الكحول. فالاعتقاد السائد، أن تناول المُسْكِرات بكمية قليلة من شأنه أن يزيد من الطاقة الجنسية ويشجع على الإقدام في الميدان، لكن التجارب العلمية أثبتت العكس! فبحقن الحيوان الذكر بالكحول؛ ولو بكمية بسيطة، تضعف قدرته على بلوغ الانتصاب والقذف. لذا، فإن تناول الكحول لغير المدمن، يهيجه جنسيًّا، لكنه يضعف أداءه. أما مدمن الكحوليات؛ فهو يصاب في كبده ومعرض للتخنث والعجز الجنسي الكامل مع تضخم الغدد الثديية ... يعني سُكْر وعربدة وخراب ديار!

ولا يفوتنا أن ننبه المدخنين كذلك، أن التدخين يؤثر سلبًا على القدرة الجنسية. وإن كنت لا أرجِّح أن تؤثر هذه المعلومة على ولعهم بالتدخين. فالذي يقرأ العبارة المدونة على علبة السجائر والتي تحذر من التدخين؛ لأنه يدمر الصحة ويسبب الوفاة، ويستمر في التدخين؛ غير عابئ بآثاره. فإن أمثال ذلك الرجل الذي تهون عليه حياته، فسوف تهون عليه فحولته!

ما التداعيات الصحية المترتبة على تأخُّر الزواج؟

يظن الرجال أنهم في منأى عن الأضرار الصحية المرتبطة بتأخر الزواج، وأن نصيب الأسد يذهب للفتاة المتأخرة؛ لاعتبارات الحمل والولادة والهرمونات، وكذلك لظروف الضغوط العصبية والنفسية، لكنني أبشرهم بأن معتقداتهم تنقصها الدقة اللازمة!

فعلى الصعيد النفسي، لا يقل الضرر الواقع على الرجل في حالة تأخره في الزواج؛ بل قد يزيد. ومن بين الأمراض والأعراض النفسية المصاحبة لهذه الحالة هي: العقد النفسية، فقدان الشهية، القلق المزمن، ضعف الشخصية، الميل إلى الاكتئاب والانطواء؛ فضلاً عن الإغراق في العادة السرية والتخيلات الغرامية والتسمر أمام كل ما هو مثير؛ الأمر الذي يرهق العقل والجسد معًا.

ونتيجة لهذا الشعور المستمر بالضياع والضجر؛ تكون جرأة الرجل أكبر على مواجهة يأسه بمزيد من الضياع. فينغمس في حياة عابثة متهورة لا تخلو من الانحراف؛ فيلجأ البعض إلى شرب المسكرات أو تدخين المخدرات، وإن كبح البعض الآخر جماح نفسه؛ فسيكتفي بالسجائر والشيشة على قهاوي المعاشات الزوجية، ناهيك عن الزنا أو الشروع فيه تلبية لشهواته العارمة. وقد يتسبب الضياع النفسي في ضياع أكبر؛ بالإصابة بالإيدز أو الزهري.

كما تؤكد الدراسات على وجود علاقة مباشرة بين العزوبية والإجرام. فبانتقاء عينة عشوائية من المجرمين؛ لوحظ أن 38 منهم من العازبين، مقابل 17 من المتزوجين. وتتسم الأفعال الإجرامية للعُزَّاب بسمات عدوانية مشتركة. فتتركز معظم جرائمهم في الاعتداء الجنسي، ولواط الأطفال، والخطف؛ بل وتشير الإحصائيات

أن المتزوجين – إذا كانت حياتهم مستقرة – أوْفَر صحة من العازبين وأطول عمرًا، على عكس ما يروِّج له الجميع!

ولا يمكن تجاهل تأثير التأخر في الإنجاب بالنسبة للرجل على مستقبل أطفاله. فكُلَّما تأخر سن الزواج، كُلَّما تقلصت المدة التي يقضيها الأطفال تحت رعاية أب معافى البدن سليم الصحة؛ فضلاً عن تزايد احتمالات وفاة الأب تاركًا أطفاله في سن مبكرة. شخصيًّا تعرضت – كابن – لذلك!

أما عالم الاجتماع الفرنسي الشهير إميل دوركايم؛ فقد توصل في أبحاثه إلى أن العازبين أكثر ميلاً للانتحار من المتزوجين. وفي دراسة حديثة بجامعة شيكاجو؛ اتضح أن حالات الإصابة بالجنون تزيد بشكل ملحوظ عند غير المتزوجين؛ إذ بلغت 83 % من إجمالي العينة المدروسة ... الخلاصة: تزوَّجوا تصحُّوا!

لماذا تفشل الزيجات سريعًا؟

"تكون لدينا صورة للزوج المثالي، لكننا نتزوج شخصًا غير مثالي. حينئذ نكون أمام خيارين: أن نمزق الصورة ونقبل الشخص الذي أمامنا، أو نمزق الشخص ونقبل الصورة"!

الكاتب الأمريكي جيه. جرانت هاوارد

تنشأ توقعات ما في خيال المُقبلين على الزواج. إقبال بعد قصة حب ملتهبة، أو إقبال بعد تعارف صالوني عابر. والنتيجة واحدة. الطرف الآخر الذي يشاركنا حياتنا ليس كما توقعناه. وهذه مسألة تبدو بديهية إن تأملناها برويَّة. وتبقى التوقعات غير

المحققة سببًا بارزًا في الانهيار المفاجئ لعلاقة زوجية وليدة.

ويحكي لنا الطبيبان النفسيان ليس باروت وزوجته ليزلي باروت في كتابهما I love you more عن نموذج واقعي لهذا الشعور السلبي.

ففي إحدى الليالي؛ كانت الزوجة الشابة تعد طبق اللازانيا في المطبخ. ذلك الطبق الذي اعتادت أن تعدَّه وزوجها معًا أيام الخطوبة. وعندما انتهت من إعداده، لاحظ زوجها أثناء جلوسه استعدادًا لتناول الطعام أنها تبكي في هدوء. فسألها في دهشة: هل تبكين؟ فلم يجبه سوى الصمت ونشيج زوجته المكتوم. عاد ليسألها في رقة: ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟ تنهدت بعمق وتحاشت النظر في عين زوجها؛ وهي تقول: أنت تعرف ما حدث. قال: لا؛ في الحقيقة لا أعرف، لكن لديَّ شعورًا بأن الأمر يتعلق بي. ماذا فعلت؟ ... ثم جلس صامتًا متوقفًا عن الأكل. وهنا قالت زوجته: ألا ترى ما تأكله الآن؟ فنظر إلى المائدة في خوف من أن يجيب الإجابة الخاطئة، ثم قال متسائلاً: اللازانيا؟ قالت: ما زلت لا تفهم. أليس كذلك ؟ نظر إليها مليًّا، ثم قال في بطء: آه. إنك منزعجة لأنني لم أقم بإعداد اللازانيا معك. أنا آسف، لم يخطر الأمر ببالي قط عند عودتي إلى المنزل. إنني مشغول جدًّا في العمل. فلماذا لم تذكِّريني أنت؟ قالت زوجته في حزن: هذه هي المشكلة. إذا كان عليَّ أن أذكِّرك، فإن هذا يدمر الأمر برمته... بسبب طبق لازانيا، قد تزيد الهوة بين ما هو متحقق على أرض الواقع، وما هو مأمول في دنيا الخيال. وتنتهي الحياة الزوجية قبل أن تبدأ !

"وما هي الرومانسية؟ عادة ما تكون عبارة عن قصة لطيفة تجد فيها كل شيء كما تحبه أن يكون، حيث لا يُبَلِّل المطر معطفك قط، ولا تقرص الحشرات أنفك قط، ويكون الجو ربيعًا دائمًا".

الأديب الإنجليزي دي. إتش. لورانس

"يجب أن تسير على مهل في بداية الحب: فالجري وسط المروج متلهفًا للارتماء في حضن حبيبك يمكن أن يأتي لاحقًا، حين تكون متأكدًا أنه لن يسخر منك إذا ما تعثرت".

الروائي الأمريكي جوناثان كارول

"لقد انتهى حبهما الرائع في اللحظة التي ارتفع فيها لهيبه إلى عنان السماء. لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يدوم. لا يمكن لحرارة الحب أن تدوم. هل بمقدورك أن تتخيل روميو وجولييت زوجين. يذهب كل منهما إلى عمله. ويدفعان الفواتير. ويذهبان لشراء البقالة؟".

"إننا نخشى أن يرانا الآخرون عاطفيين أكثر من اللازم، أو غير عاطفيين كما ينبغي، أو واثقين فوق العادة، أو غير واثقين بما يكفي. باختصار فإننا نخشى الرفض. ونقول لأنفسنا: إذا عرف الطرف الآخر حقيقتي، فلن ينجذب لي".

د. ليزلي باروت

إنه هذا التردد في خوض التجربة. هذا الخوف من الفشل. تفشل زيجات كثيرة وأحيانًا قبل إتمامها، بسبب عدم القدرة على التفرقة بين جمال الرومانسية ولهيب المشاعر وبين القدرة على افتتاح مشروع

عملي ناجح يسمى الزواج. لم يكن الحب قط عاملاً وحيدًا لإنجاح حياة مشتركة؛ بل يحتاج الزوجان إلى الثقة في النفس، إلى التسامح مع الآخر، إلى قبول الآخر بعيوبه وميزاته، إلى الإيمان بأن مستر بيرفكت ومسز بيرفكت لا وجود لهما، ولا حتى في أكثر القصص الرومانسية سذاجة.

ويحتاج الزوجان أن يبرهنا لأنفسهما ولبعضهما البعض على أن مشاعرهما صلبة، وفي مقدورها تحمُّل الظروف الطارئة التي تمتلئ بها الدنيا؛ كأن يفقد أحدهما عمله، أو يمرض أحدهما مرضًا خطيرًا، أو يُرزقا بابن من ذوي الاحتياجات الخاصة، أو يتعرضا لخسارة مالية فادحة، أو يصاب أحدهما بالعقم. وما أكثر المواقف السيئة المفاجئة التي تخرج عن سيطرة الجميع.

إن روميو وجولييت قد انتحرا حزنًا على الفراق، وأخشى ما أخشاه أن ينتحرا مجددًا طمعًا في الفراق!

"إن الزواج هو آخر، وأفضل فرصة للنضج".

الكاتب الأمريكي جوزيف بارث

فن إدارة النزاعات. هو فن يفتقده معظم الأزواج والزوجات. وبسبب الطريقة التي يبث بها كل طرف شكواه لزميله في رحلة الحياة؛ قد تتوقف الرحلة في محطة مبكرة، ويغادر الطرفان القطار؛ كل في طريقه ... وأسوأ ما قد يقع فيه أحد الأطراف، أن يسارع إلى تلويث الطرف الآخر أمام أهله. فمن المحظورات على الرجل أو المرأة أن يقوم أحدهما بنقل صورة سيئة عن الآخر خارج

إطار علاقتهما؛ سواء كانت العلاقة في بدايتها أو كانا زوجين؛ لأن الحبيبين يسامحان بعضهما البعض؛ لما لعلاقتهما من خصوصية وعمق يسمح بذلك؛ في حين تتراكم رواسب المشاحنات العابرة في أذهان الأهل؛ إن تم إطلاعهم عليها. وبذلك يتشوَّه كل طرف أمام أهل الآخر. فإن كانا يسيران في إجراءات الخطوبة، تغيرت الوجهة إلى الفراق، وإن كانا زوجين وبينهما أطفال، استحالت حياتهما إلى جحيم، قد ينتهي بتدمير البيت.

إن كل زيجة لابد وأن تعاني بعضًا من أوجه النقص. غير أن الأزواج الذين يعيشون في نزاع متصل؛ ينبغي عليهم أن يتعلموا كيف يمكنهم إحلال الشكوى محل الانتقاد؛ وهو استبدال مفيد سيقلل من مرات مشاحناتهم.

ولا تقتصر المشكلة على أسلوب الشجار؛ بقدر ما تمتد إلى كسل الطرفين. فكثير من الأزواج يشعرون بالرضا عن أنفسهم إلى درجة تجعلهم لا يبذلون الجهد المطلوب لتعلم مهارة جديدة وممارستها؛ حتى وإن كان ذلك سيصنع فارقًا هائلاً.

ويقدم لنا الزوجان باروت في كتابهما السابق الإشارة إليه صيغة رائعة للتعامل مع السلوكيات المرفوضة من أحد الطرفين. هي صيغة «س ص ع» للتصدي للمشاكل. وتقوم فكرتها على أساس أن كل انتقاد موجه من طرف إلى آخر قد تنتج عنه مشاجرة، فإذا انتقدت الزوجة طريقة زوجها في القيادة بطريقة ساخرة، فسوف ينتاب الزوج الغضب، والعكس.

لذا تقول الصيغة المثالية: في الموقف س حين تفعل التصرف ص فإنني أشعر بالشعور ع. فبدلاً من إبداء ملاحظة انتقادية بشأن طريقة

الزوج في القيادة، تقول الزوجة: حين تقود في الشارع، وأطفالنا في الكرسي الخلفي من السيارة، وأراك تزيد السرعة كي تلحق بإشارة المرور قبل إغلاقها، فإنني أشعر أحيانًا أنك تعتبر اللحاق بالإشارة أكثر أهمية بالنسبة لك من سلامتنا. وهذه الطريقة البسيطة في صياغة الشكوى تنطوي على احتمالات مواجهة مشاكل؛ أقل بكثير من أن تقول: يا لك من سائق عابث متهور!

وتحضرني هنا واقعتان مروريتان حدثتا بالفعل. إحداهما تناقض الأخرى. والاثنتان دخلتا موسوعة غرائب من العالم.

الأولى: إن أطول قبلة مسجلة في التاريخ بين رجل وامرأة تم تدوينها بالبرازيل، حين تسببا في عرقلة حركة المرور في شارع رئيسي في العام 1964، حين أرادا تبادل قبلة سريعة ساخنة في سيارتهما، فتشابكت دعامتا أسنانهما المعدنيتان! ... والثانية: حين تسبب خلاف زوجي في أحد شوارع مدينة ألمانية في إيقاف المرور لعدة ساعات. وذلك عندما نشب الخلاف بين رجل وزوجته في داخل سيارة؛ ما أدى إلى قيام الرجل بإلقاء بنطلون جلدي بعصبية من نافذته في الهواء، فعلق البنطلون بخط الكهرباء الذي يسير عليه الترام، ما تسبب في قطع الكهرباء عن الترام العابر مؤقتًا، وبالتالي وقوفه وسط الميدان، ومن ورائه عشرات السيارات!

ياه؛ يدخل الأزواج التاريخ بفن الحفاظ على مشاعر الآخر من عدمه ... فلنكتب تاريخنا بما نحب أن يذكره مستقبلنا!

"إننا نقف في مفترق الطرق؛ كل دقيقة، وكل ساعة، وكل يوم.

لنصنع اختياراتنا. إننا نختار الأفكار التي نسمح لأنفسنا باعتناقها، والعواطف التي نسمح لأنفسنا بالشعور بها، والأفعال التي نسمح لأنفسنا بالقيام بها. ويأتي كل اختيار في إطار منظومة القيم التي اخترناها لتحكم حياتنا. وفي اختيارنا لمنظومة القيم تلك؛ فإننا نقوم - بطريقة فعلية - بأهم اختيار نقوم به على الإطلاق" .

العالم والفيلسوف الأمريكي بنيامين فرانكلين

الخيارات السيئة هي واحدة من أهم الأسباب الأساسية التي تعرِّض الزواج للأزمات. والمقصود بالخيارات هي القرارات التي نتخذها أو لا نتخذها. وقد تكون قرارات بخصوص أمور بسيطة؛ كان من شأن اتخاذ قرارات معاكسة حيالها ألا يؤذي أحدًا.

ونضرب مثالاً: إذا اختارت الزوجة أن تخفي معلومات عن زوجها بشأن نقود أنفقتها أثناء جولة تسوُّق صباحية مع إحدى صديقاتها في غياب الزوج في عمله. فالسؤال الذي يطرح نفسه: ولِمَ تخفي الزوجة مثل هذه المعلومة التافهة عن زوجها؟ وستأتي الإجابة: خوفًا من اتهامها بالإسراف في أوجه غير مفيدة، وقد تكون – حفاظًا على برستيجها ووجاهتها الاجتماعية – قد أُجبرت على صرف أموال زائدة عن الحد؛ كي لا تظهر بمظهر أقل من صديقتها. وهنا يأتي سؤال جديد: هل لو صارحت زوجها بهذا المأزق النفسي الذي تعرضت له، والذي أدى إلى إنفاق مال أكثر مما ينبغي، كان رد فعل الزوج سيكون أعنف من لو اكتشف بنفسه لاحقًا تبخُّر مصروف البيت في غير المتفق عليه ودون علمه؟

ونعطي مثالاً على الجهة الأخرى: فإذا اختار الزوج أن يكون مع

أصحابه في سهرة مشبوهة؛ قد تؤدي إلى تورطه في موقف يتنافى مع أخلاقه وإخلاصه لزوجته. فالسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا يضع الزوج نفسه في مأزق مُخجل كهذا بكامل إرادته؟ ولماذا يوافق على المكوث معهم لوقت متأخر دون أن يحاول الاستئذان بصفته زوجًا محترمًا مسئولاً مشغولاً؟ وإذا ما اكتشفت الزوجة خيانته لها، فماذا عساه أن يقول دفاعًا عن نفسه؟ هل يخبرها أنه أصيب بكسل مفاجئ في عضلة اللسان جعله يتراخى أمام رفض الخروج في سهرة ماجنة؟

كل قرار يتخذه صاحبه - وهو يعلم تمام العلم أنه قد يندم على اتخاذه إذا ما افتضح أمره - هو قرار غبي ما كان ينبغي للمرء أن يتخذه ... واضح؟!

"إن كل ما تحققه، وكل ما لا تحققه، يعد نتيجة مباشرة لأفكارك أنت".

الأديب الإنجليزي جيمس آلان

"لقد تواعدنا أن نبقى معًا؛ ليس لأننا نعتقد أن الأمور بيننا لن تتغير، بل لأننا نعلم أنها ستتغير".

الصحفي الأمريكي إيريك زورن

فإن التأرجح - بين السلبية والإيجابية في التعامل مع أمور المعيشة الزوجية - هو عامل مؤثر وحاسم في القدرة على الإنجاز من عدمها، في الإحساس بالسعادة، وفي الشعور بنقيضها.

ويلخص هذا الأمر قانونان متناقضان: قانون ميرفي[13] الذي يغلب عليه التشاؤم الساخر. يقول في هذا الشأن: "لا شيء يكون سهلاً كما يبدو، وكل شيء يستغرق أطول مما تتوقع، وإذا كان من المحتمل أن يحدث خطأ ما، فسيحدث هذا الخطأ وفي أسوأ اللحظات الممكنة"!

بينما يفضل الأزواج الإيجابيون السعداء أن يعيشوا بقانون آخر يقول: "لا شيء يكون صعبًا كما يبدو، وكل شيء أفضل عادة مما تتوقع، وإذا كان من المحتمل أن يحدث شيء طيب، فسيحدث هذا وفي أفضل اللحظات الممكنة"!

ومن جديد يحكي لنا الزوجان باروت عن تجربة ثنائية التعمية[14]، تبرهن على أن المحك الرئيسي هو نظرتنا نحن للأمور؛ نظرتنا التي تشكل حقيقتها؛ لا حقيقتها التي تشكل نظرتنا؛ لأن كل شيء – كما نعلم – نسبي.

هي تجربة تم إجراؤها بإحدى مدارس سان فرانسيسكو بولاية

(13) هي مجموعة من الأمثال الساخرة المنتشرة في ثقافة الغرب، وقد وُلد هذا القانون في قاعدة إدوارد الجوية بالولايات المتحدة في عام 1949، وتعود تسميته إلى الكابتن إدوارد ميرفي الذي كان يعمل مهندساً في مشروع قياس مدى احتمال الجسم البشري للتباطؤ المفاجئ في السرعة. وحدث أن قام أحد الفنيين بغلطة في التوصيلات الكهربية، فنهره ميرفي قائلاً " لو أن هناك احتمال لحدوث خطأ ما، فسوف يحدث ". فسمعه المسئول عن المشروع، وسرعان ما تحولت العبارة إلى قانون ميرفي بين العاملين، حتى إن أحد العاملين في المشروع تحدث في مؤتمر صحفي وقال:" إن السبب الرئيسي في ارتفاع معدل السلامة في المشروع يرجع إلى قانون ميرفي" !

(14) هي تجربة علمية يتم حجب معلومات حيوية عن طرفيها المتورطين فيها، والتي إن أحيطا علمًا بها، فقد تؤدي إلى بطلان نتائجها بسبب التحيز. لذا فالطرفان قد تمت تعميتهما عن حقيقة التجربة كي لا تفشل.

كاليفورنيا في أقصى الجنوب الغربي الأمريكي؛ إذ استدعى الناظر ثلاثة مدرسين معًا مُطْلعًا إياهم على قرار مهم، فقال: "لأنكم أنتم الثلاثة أفضل مَن في المَدرسة، وتتمتعون بالخبرة الأكبر؛ فسنمنح كلاً منكم طلابًا شديدي الذكاء، وسنتيح لكم الفرصة للتدريس لهؤلاء الطلاب بالإيقاع المناسب لهم، وسنرى كم سيتعلمون". وبالفعل، بدأ المدرسون في التدريس للطلبة لمدة عام دراسي. وكان الأمر يبدو مبهرًا. فالمعلمون يدرسون لأذكى التلاميذ، والطلبة يستفيدون من أمهر الأساتذة. وبنهاية التجربة؛ حقق التلاميذ نتيجة تزيد بنسبة 20 % عن أقرانهم من طلبة سان فرانسيسكو بأكملها.

وهنا طلب الناظر المدرسين لاجتماع عاجل. ذهب الأساتذة للقاء ناظرهم؛ وهم فخورون بما قدموه في السنة الدراسية المنقضية. استقبلهم الناظر بحفاوة، ثم تأمل وجوههم في هدوء، ثم كشف لهم سرًا خطيرًا. فالطلبة الذين قام المدرسون الثلاثة بالتدريس لهم لم يكونوا من أذكى الطلبة وأبرزهم، بل تم اختيارهم بشكل عشوائي في إطار تجربة يتم إجراؤها. فارتبك الأساتذة، ثم قال أحدهم في خيلاء: "إذن؛ فهذا يعني أن الفضل كله يُنسب إلينا نحن؛ فإننا كما تعلم مدرسون غير عاديين". فتابع الناظر كلامه، وقال في ابتسامة خبيثة: "لديَّ اعتراف آخر. أنتم لستم أذكى المدرسين، لقد كانت أسماؤكم هي أول ثلاثة أسماء يتم سحبها من هذه القبعة بشكل غير مقصود"!

فلماذا إذن أدَّى الطلبة بهذا المستوى الاستثنائي لمدة سنة كاملة؟ ... يتوقف ذلك على تغيير المفهوم، والطريقة التي ننظر بها إلى موقف معين؛ سلبًا أو إيجابًا... وهكذا هو الزواج أيضًا، نحصل منه على ما

نسعى للحصول عليه منه. فإذا كنت تظن أن شريكة حياتك تتسم بالكسل والغباء، فيمكنك أن تجد عشرات الأدلة التي تؤيد رأيك، وإن أردت أن تعتقد أنها تتسم بالكفاءة والنشاط، فبوسعك أن تجد من تصرفاتها ما يدعم ذلك أيضًا. فأي شيء تستعد ذهنيًّا للحصول عليه، فسوف تحصل حتمًا عليه.

"ليس هناك جميل أو قبيح، وإنما تفكيرك هو الذي يصور لك أحدهما".

الأديب الإنجليزي ويليام شكسبير

"يجب أن يحارب الزواج نمطية الحياة؛ ذلك الوحش الذي يبيد كل شيء في طريقه".

الأديب الفرنسي أونوريه دو بلزاك

من أبشع الثغرات التي تنخر في جدار الزواج هي حدة الطباع الناتجة عن ضيق الخلق وتسارُع وتيرة الحياة. فالانشغال يؤدي إلى أخطاء لا يميل أغلبنا إلى الاعتراف بها. فإذا ما أصبحت منشغلاً ومضغوطًا، فإنك غالبًا ما تصير متقلب المزاج. ولم يكن هذا حالك منذ البداية؛ بل كنت سابقًا في غاية اللطف والإحساس. وفي مرحلة ما ودون تعمُّد؛ يصبح أحد الأطراف مفتقدًا للصبر، وسريع الغضب ... بما فيهم هذا الزوج الكاتب الماثل أمامكم!

ويسفر ضيق الخلق في المعتاد عن الوقوع في شرك الملل. وعن الملل تقول إحدى الزوجات: "لقد مرَّت ليال نجلس فيها على طاولة

العشاء، ولا نجد ما نتحدث فيه. وأتذكر في الماضي ليالي، كنت أراقب فيها الصمت بين أزواج آخرين في المطاعم، وأتساءل كيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحد" ... ومن الإنصاف أن نؤكد أن الملل مسئولية مشتركة، لكن محاربته تتطلب إرادة كبيرة وحبًّا أكبر.

"أحيانًا ومثلما يحدث عند تقشير البصل؛ نبكي حتى لا يعود بوسعنا رؤية ما بأيدينا، لكننا لا نترك البصل، ولهذا لن أتركك أيضًا".

الكاتبة الأمريكية جانا كارمان

وقديمًا قالوا بصلة المحب خروف!

وختامًا نقول إن الزواج هو أن تحملني وأحملك، فنصعد معًا. الزواج هو تقدير الآخر ومراعاته والتعاطف معه. هو أن أضع نفسي في موقف شريكي. ويقول العارفون إن معظم الصراعات الزوجية التي تصل بالزواج إلى نهاية المطاف، كان من الممكن تفاديها، لو حاول كل طرف أن يرى المشكلة بعيني شريك حياته.

إنَّ تَفَهُّم الآخر هو جوهر الحب، ومؤشر النجاح بين الزوجين؛ حتى لو ظن أحدهما أو كلاهما أنهما أكثر الأزواج تناقضًا في الكون، وليس لديهما شيء متماثل سوى أنهما قد تزوجا في يوم واحد، ورُزقا بنفس الأطفال!

فإنْ تَفَاهَمْنا على الاختلاف ... فقد اتفقنا !

مُعْجزات الزواج السعيد!

يَهَب الزواج السعيد الصحة ويشفي الأمراض ويُنجي من الموت.

والتفاصيل في قصة حقيقية يرويها لنا أحدهم في كتاب I love you more: منذ شهور قليلة، وبينما كنت مسافرًا بالطائرة من سياتل إلى واشنطن، لاحظت أن راكبًا يجلس في الجانب الآخر من الطائرة يعاني في تنفسه، ويمسك صدره، ثم يسقط على الأرض. فصاحت زوجته الجالسة بجواره ملتاعة: هل من طبيب هنا؟ وكان يبدو أنه يعاني ألمًا حادًا في صدره. وسرعان ما جاء الطبيب، وقمنا بحمل الرجل إلى مقدمة الطائرة بناء على إشارة الطبيب الذي طلب كذلك من قائد الطائرة أن يعدِّل مسار الرحلة إلى مدينة دنفر وهي أقرب مطار؛ بحيث تكون وحدة طوارئ في الانتظار. وهنا سألته إحدى المضيفات: ما الذي يحتاجه الآن تحديدًا؟ فنظر الطبيب إليها، ثم نظر إلى المريض الذي تدهورت حالته بشكل حاد، ثم قال: "يحتاج إلى زوجته فورًا". وسرعان ما لحقت به زوجته، وجلست على الأرض بجواره، وأمسكت به، وأخذت تداعب وجهه بلُطْف، وتَجَاوَب زوجها مع لمساتها بأن استقرت حالته وهدأت أنفاسه وانضبطت. تابعنا جميعًا هذا المشهد المؤثر، ثم همس لي الطبيب في أذني قائلاً: "إن هذا هو أفضل دواء له الآن" ... ونجا الرجل!

وقد أثبتت الأبحاث أن شريك حياتك يمكن أن ينقذ حياتك، لمجرد أنه شريك حياتك! ولقد لخصت تلك الحقيقة إحدى الدراسات: إن معدل الوفيات عند غير المتزوجين أعلى من نظيره عند المتزوجين بنسبة 5 % بين النساء، و25 % بين الرجال. فغير المتزوجين أكثر عُرضة للوفاة بكل الأسباب مثل أمراض القلب، والسرطان، وحوادث السيارات، لكن هل لنا أن نتأمل فارق النسبة؛ الرجال يموتون بنسبة خمسة أمثال النساء في حالة الوحدة. فهذه تُحسب لهن، وتُحسب علينا!

وعلى عكس ما يروِّج له الرجال، وتسلِّم به الروايات، وتؤمِّن عليه السينمات، فإن الأشخاص المتزوجين أكثر ثراء في المتوسط من غير المتزوجين. ولهذا منطق مقبول وحكمة واضحة ... فبالزواج، يشترك الاثنان في أثاث واحد، وأجهزة منزلية واحدة، وينفقان من المال بشكل فردي أقل مما لو عاش كل منهما وحده. وبفضل الزواج يتحسن الوضع المالي بمرور الزمن، وكلما طال عمر الزواج زادت الثروة، لأن الزواج يجعل جميع الأطراف أكثر مسئولية وحرصًا على المستقبل. وتقول ليندا وايت وماجي جالير في كتابهما The Case Of Marriage: "حين يقوم الشخص الأعزب بالإسراف في إنفاق ماله دون أن يدخر منه، فهذا ليس من شأن أحد، فهو المسئول وحده. أما المتزوج، فحين يفكر في إهدار المال، فإنه يفكر فيما سيبرر به فعله لشريك حياته".

ولهذا السبب أيضًا يكون الزواج أفضل كلما زادت نسبة المسئولية المشتركة في الأمور المالية. فالأزواج يحافظون على أموالهم، ويتقاسمون النفقات، ويقسِّمون العمل، ويمنع بعضهم بعضًا من تبذير المال، وهذا يخلق فرصة أكبر لجمع الثروة. وقد دفع هذا بعض الخبراء الماليين إلى اعتبار أن الزواج الجيد هو أهم إعانة للشخص في حياته المادية.

ولعل في هذه الأبحاث الجادة ردًّا عمليًّا على رجال كثيرين في بلادنا يهربون من الزواج بحجة تكلفته. رغم أن التكلفة الأولية التي يحملون همها من شبكة ومهر وخلافه، يتم تعويضها بشكل تراكمي، ثم يفيض الخير ويزيد؛ بشرط سلامة النية. تمامًا مثل مشروع استثماري أو أرض زراعية، تدفع مُقدَّمًا، ثم تعوِّض خسائرك، ثم

تربح بمرور الزمن ... ولو فَكَّر هؤلاء الرجال في مشاريعهم، كما يفكرون في زيجاتهم، ما أقاموا مشروعًا واحدًا قط!

قلنا إن الزواج السعيد يهب الصحة، ويهب الثروة ... وكذلك لا يهاب الموت!

شاهد المليارات فيلم تايتانيك. وتعاطف الجميع مع قصة الحب الرومانسية، لكنها تبقى مجرد قصة خيالية. أفضل من ذلك، أن نقرأ معًا هذه القصة الواقعية من السفينة ذاتها وفي الليلة نفسها. لكن أحدًا لم يشاهدها في السينما، ولا غنَّت لها سيلين ديون! (15)

هاجر الزوجان إزيدور وإيدا شتراوس من ألمانيا إلى أمريكا في سبعينيات القرن التاسع عشر. ونجحا مع الزمن في أن يشقَّا طريقهما هناك في ذلك العالم الجديد، وتمكنَّا من امتلاك متجر في مدينة نيويورك. وصارت الأمور على ما يرام. وفي مطلع عام 1912؛ كان الزوجان في زيارة إلى مسقط رأسيهما بألمانيا، وعندما سمعا عن السفينة تايتانيك، وتلك الرحلة الأسطورية المزمع قيامها من الميناء الإنجليزي ساوث هامبتون إلى ميناء نيويورك حيث يسكنان، عقدا العزم على الاشتراك في هذه الفسحة، لينعما بإجازة رومانسية على سطح الباخرة وسط المحيط، خاصة بعد أن كبرا في السن وتزوج أبناؤهما الستة وتقلصت التزاماتهما. وفي مساء تلك الليلة المشئومة من منتصف أبريل 1912؛ اصطدمت تايتانيك بجبل جليدي في

(15) للإنصاف، تحولت هذه القصة عام 1958 إلى فيلم دراما تسجيلي بعنوان A night to remember عن قصة بالاسم نفسه لـ والتر لورد .

أولى رحلاتها على الإطلاق. وعندما أدرك الركاب أن السفينة على وشك الغرق، وبدأ القائمون على الباخرة في إنزال قوارب النجاة في حالة من الفزع الكبير، كان إزيدور وإيدا يسيران في هدوء متشابكي الأيادي وسط الجموع المحتشدة. ولما بدأت إجراءات الإنقاذ المتبعة بإنزال النساء والأطفال أولاً، وبينما كانت إيدا تهم بركوب القارب المخصص لها، توقفت فجأة، وغيَّرت رأيها وتوجهت إلى زوجها، وقالت: "سوف أنتظر معك. وأذهب معك أينما تذهب ووقتما تذهب. لقد عشنا معًا. وإن قُدِّر لنا الموت، فمعًا". حاول أعضاء طاقم الإنقاذ إثناءها عن قرارها في عصبية ولهفة كي ينجزوا عملهم، لكنها لم تستمع لصرخاتهم ونصحهم، ثم توجه أحد أعضاء الطاقم إلى زوجها قائلاً في نفاد صبر: "سيدي، ما من أحد سيغضب إن أُضيف إلى القارب شيخ مثلك"، لكنه لم يكن أقل عنادًا من زوجته، وقال في هدوء: "لن أركب قبل غيري من الرجال". وبدلاً من ذلك؛ اتفق الزوجان على إرسال خادمتهما إيلين إلى القارب؛ لتحكي هي لنا هذه القصة بعد ذلك!

حُسم الأمر. ولم يذهب أحدهما دون الآخر. ولم يغادر أيُّهما السفينة الغارقة إلى أي مكان؛ فقد مشى الزوجان نحو السطح، وجلسا ينتظران القدر المحتوم.

مات الزوجان شتراوس منذ قرن من الزمان؛ ليعيش حبهما على مر الزمان!

قُلْنا!

لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: يا أنا! ... ولا يصح الحب بين اثنين إذا كان أحدهما يقول للآخر: يا أنا ... يا أنت!

لأسباب متعلقة بموضوع هذا الكتاب، كنت أقرأ كتابًا بعنوان «لماذا يهرب الرجل من الزوجة إلى العشيقة؟». شاهده أحد الأصدقاء المتزوجين معي. انفرجت أساريره، ثم تأمَّل الكتاب مليًّا، وقال في لهجة آسفة: هذا المؤلف الغتيت. كان الأجدر به أن يقول لنا كيف يهرب، لا لماذا يهرب!

كثر الحديث عن الجنس الآخر والصحيح أننا لو أردنا أن نُمَيِّز جنسًا على جنس، فالأقرب للمنطق، أن نُمَيِّز المرأة على الرجل. فالمرأة من الزاوية البيولوجية مخلوق مُرَكَّب مُعَقَّد وأكثر تطوُّرًا. فمن الناحية الوظيفية؛ يقوم جسد المرأة بمهام لا مثيل لها عند الرجل، وهو ما يمنحه أفضلية في التصنيف. فالمرأة تحمل، وتنجب، وترضع، وتحتمل آلام كل ذلك في قوة لا يحلم رجل بامتلاكها. وبناءً على ذلك، فإن كان لزمًا وحتمًا ولابد أن نبحث عن ألقاب نُفَرِّق بها بين شريكي الحياة على سطح هذا الكوكب، فلتكن المرأة هي الجنس الأول، وليكن الرجل هو الجنس الآخر!

هي كارثة بكل المقاييس أن ينص قانون معاقبة المُتحرِّش جنسيًّا على الحبس سنة أو غرامة لا تتجاوز مئتي جنيه، بينما ينص قانون المرور على الحبس ستة أشهر في حالة الانتظار الخاطئ وفك الكلابش بمعرفة قائد المركبة وغرامة تصل إلى ثلاثة آلاف جنيه في حالة السير عكس الاتجاه ... ياه! لقد بلغت مسألة استباحة المرأة في بلدنا مبلغًا خطيرًا، إلى الحد الذي صار معه «كسر» إشارة مرور أهم كثيرًا من «تحطيم» حياة إنسانة!

يتهم الرجل المرأة أنها كثيرة الدموع، سريعة البكاء. ومن العجيب أن يلوم الجاني المجني عليه؛ إن غرز سكينًا في قلبه ... على تدفُّق الدماء !

الذي يصف الزواج بأنه سجن، فقل لي يا هذا، أي سجن هذا الذي يوفر لك أشهى الطعام، وأنظف الملابس، ورفاهية الأبوة دون عناء حمل أو ولادة، ومتعة الجنس دون وقوع في حرام ... ثم أضف - على كل ذلك - متعة الشخط والنطر واللوم والعتاب والتثريب للسجَّان المسكين!

إذا كانت المرأة حريصة على إخفاء سنها؛ بمداراة التجاعيد، من باب التأنُّق، فإن الرجل أكثر حرصًا على إخفاء حالته الاجتماعية؛ بخلع الدبلة؛ من باب البصبصة!

الزوج الأحمق: هو ذلك الرجل الذي يتوقع من زوجته — دومًا - أن تكون مثالية صبورة بشوشة حليمة لذيذة، وأن تتفهم بكل رحابة صدر، لماذا لا يكون هو كذلك!

في شئون الكذب، الرجال أربعة: كاذب وقح؛ يعلم أن امرأته تكشفه، ولا يهمه في شيء، كاذب واثق؛ يتقن الكذب ولا يلقي بالاً لامرأته، كاذب أحمق؛ تفضحه أفعاله وتعرف امرأته ما يخفيه، ولا يفطن هو إلى ذلك، كاذب مهزوز؛ لا يستره أسلوبه ويدخل في معارك يومية مع امرأته ... نسأل الله أن يكون بيننا مَن ينتمي إلى نوع خامس ... كاره للكذب!

لو كان الرجل نهرًا، فحضْن زوجته ضفتان تُلَمْلِم بعثرته. ورعايتها له منبع ينهل من حنانه، وصبرها عليه مصبٌّ يمتص توتر أعصابه... فقط كُن نهرًا أيها الرجل، وسلِّم نفسك لها. ولكن مهلاً! فالنهر يجري ويسري ويتدفق. فراقب نفسك أولاً، هل أنت رجل نهر، أم رجل بِرْكة ... بكسر الباء وتسكين الراء؟!

الرجل الذي يظن أن الله قد خلق المرأة؛ فقط لتسعده وتُسَلِّيه وتشبع رغباته؛ كرجل ساذج يؤمن بأن الله قد خلق للخيول ذيولاً؛ ليصنع منها مَنَشَّات الذباب. وخلق نجوم السماء؛ كي تلهمه الشعر. وخلق النار؛ كي يشعل بها تبغه. وخلق الهواء؛ كي ينفُث فيه دخانه. وخلق القمح ينمو؛ كي يُشَغِّل به طاحونته. وخلق الماء؛ كي لا يحلق ذقنه على الناشف. وخلقه شخصيًّا؛ كي لا تُحرَم البشرية من عبقريته ... بل هو كذلك مثل ديك مغرور يوقن أن الشمس إنما تشرق صباحًا؛ فقط كي تستمع إلى صياحه. فبئس سذاجة الإيمان، ويقين الغرور!

قد يقضي الحب على الصداقة، وقد تُفضي الصداقة إلى الحب. فكُن صديقًا لحبيبتك، وزوجًا لصديقتك، وحبيبًا لزوجتك!

الحب من طرف واحد؛ العطاء من طرف واحد؛ الاهتمام من طرف واحد؛ علاقة مُشَوَّهة إلى أقصى وأقسى حد ... تمامًا مثل ناطحة سحاب فارهة وقد نسوا أن يضعوا لها أسانسير!

قطعًا سبق أن رأيت سيارة «تركن» في مساحة تناسبها بالكاد، فيبذل قائدها مجهودًا مضاعفًا في سبيل ذلك. هكذا يجب أن يكون الزواج أيضًا!

ربما يشعر بالندم بعض الذين يقدمون على الزواج؛ حتمًا يشعر بالندم كل الذين يُعْرِضون عن الزواج. فإن لم يكن ذلك في شبابهم هم؛ ففي شباب أبناء الآخرين من جيلهم الذين تزوجوا في شبابهم!

تزوج رجل على كِبَر سنه، فقيل له: لمَ تأخرت في زواجك كل هذه المدة ؟ قال: أبادر أبنائي باليُتْم قبل أن يبادروني بالعقوق. فبئس البادرة والمُبادِر!

بين الذكورة والرجولة فارق هائل. فالحياة كآلة الكمان أمامنا؛ كل المعاني النبيلة والألحان العظيمة بين أوتارها، لكن العزف على أوتار الحياة هو ما يخلق المعاني والألحان ... وهكذا هو العزف على أوتار الذكورة لتخرج منها معاني الرجولة ... فليس كل ذكر رجلاً، وليس كل عازف مُلحِّنًا، وليس كل لحن لحنًا رائعًا !

في هذا العصر الذي تنجب فيه النساء أشباه الرجال - لتبتلي بهم نساء أخريات - أظن أنه قد آن الأوان؛ كي نبحث مشكلة أنوثة

الرجل؛ لا عنوسة المرأة. وبين هذه وتلك؛ فَقَد المجتمع كبرياءه!

الذين قالوا إن امرأة بلا رجل؛ كحديقة بلا سياج؛ إنما كانوا يقصدون بذلك أنها قد تكون مُستباحة أو مُهدَّدة؛ بلا حماية من رجل، يلعب دور السور في حياة أزهارها وأشجارها! ... وربما ينطبق ذلك التشبيه على الرجال الحقيقيين الذين يتسمون بالرجولة غير المُزيَّفة؛ فليس كل مَن يحلق ذقنه اخشوشن، وليس كل مَن غلظ صوته استرجل، وليس كل مَن تقدَّم للزواج، قدَّم معه الأمان لعروسه ... أعرف عريسًا تقدم لفتاة، وبعد كل طقوس التسبيل والسَهْوَكة؛ أكَّد لها - في سعادة غامرة - أنه قد وجد فيها فتاة أحلامه. إنها الفتاة التي يبحث فيها عن الأمان والحماية ... أجل؛ أمنه هو وحمايته هو! ... وأنصح أمثاله بتركيب جهاز إنذار على نوافذ أحاسيسه، وكالون الأهرام ست تكَّات على مداخل مخاوف قلب أُمِّه من جُوَّه!

الذين يتلذَّذون بالدخول في مغامرة عاطفية ثم الهروب منها، والدخول في غيرها ثم الهروب، وإلى الأبد ... ما قولهم في أن بعض الأسماك تموت غرقًا؟!

على كل لون يا رجَّالة! الخادمات يعملن؛ للصرف على أزواجهن الأنطاع، وسيدات الطبقة المتوسطة يعملن؛ لأن دخل الرجل وحده لن يفتح البيت أو حتى يواربه، وسيدات الطبقة فوق المتوسطة يعملن؛ لأنهن لو لم يفعلن فسوف يتعلم أطفالهن في مدرسة السلحدار النموذجية، وسيدات الطبقة العليا يعملن؛ كي يحافظن على كيانهن بعيدًا عن الهامش؛ خاصة مع زوغان أعين الرجال المنتشر في هذه

الطبقة. تُهْلِك المرأة نفسها برًّه وجوًّه؛ لأن الرجل كمسئول، اتضح أنه مش مسئول!

تقول الإحصائيات في مصر إن ثلث الأسر المصرية تعولها المرأة وحدها. والثلثان الباقيان إما تشارك المرأة في الإعالة بعملها؛ إلى جانب أعباء المنزل، وإما تتكفل بأعباء المنزل، لو كانت لا تعمل. ومن الغريب أن إحساس الذكور برجولتهم في بلدنا يتعاظم ويتمدد وينتشي وينتفخ؛ رغم أنه في كثير من البيوت والمناسبات والعائلات، لا يلعب سوى دور دكر البط!

ويلٌ لمجتمع لا يؤرقه سوى جسد المرأة. المنتقبة لا ترى في نفسها سوى جسد ينبغي إخفاؤه فجسدها مدعاة للعار. مرتدية البيكيني لا ترى في نفسها سوى جسد ينبغي إظهاره فجسدها مدعاة للفخر. عزيزتي: جسدك ليس للبيع أو الفُرجة أو التخزين، فلا تُعَرِّيه من أجل رجل، ولا تخفيه خوفًا من رجل. بل احترميه من أجل نفسك، فلست سلعة في فاترينة. فلا تسمحي للرجل أن يقايض على جسدك. فإن ابتاعك اليوم، باعك غدًا. اكسري الفاترينة فورًا !

المجتمع مُعاق. إذا مات الرجل، فإن أرملته تخونه إن تزوجت بعده. وإن ماتت المرأة، فإن ألف عروس تظهر لرعاية الأرمل وأطفاله. إن تأخر الشاب في الزواج، وماله براحته، يعُك ويصاحب ويلعب على النت. وإن تأخرت الفتاة في الزواج، فهي ملفوفة لفة هدايا في انتظار فارس الأحلام ولو جاي راكب جحش!

إن تزوَّجَتْ فتاة ممَن لا تطيق - أملاً في تكوين أسرة - تكون كمن يحاول أن يحصل على الصوف من البقرة. وإن تزوَّجَتْ من حبيب عيِّل - ليس له في تحمُّل المسئولية - تكون كمن يجاهد للظفر بالألبان من الخروف ... وما بين صوف البقرة ولبن الخروف، هذه قصة حياة بنات الجيل!

لا حول ولا قوَّة

إلاَّ بالله !

هل يحترم الإسلام المرأة؟ هل خلق الله المرأة في مكانة أدنى؟ هل يدل تَسَاوي شهادتي امرأتين برجل على عدم أهلية المرأة؟ هل تثبت آية "الرجال قوامون على النساء" عدم استحقاق المرأة؟ هل يؤكد حديث "النساء ناقصات عقل ودين" عدم جدارة المرأة؟ وماذا عن آداب الخطبة والمهور والزواج والطلاق؟ ... أسئلة كثيرة مثيرة. لن أحاول التصدي لها بمفردي؛ لأنني أنا الآخر غير أهل وغير جدير وغير مستحق! ... لكننا سنكتشف بعد قراءة الفصل - وبعد سرد حكايات من الزمن الجميل، وبعد تدوين بعض الملاحظات العابرة عن وضع المرأة الحالي مقارنة بما أقرَّه الإسلام - أننا نحن الرجال يجب علينا أن نغضب، وأن نخجل من أنفسنا، وأن نُصاب بإحراج في غُدَد الشعور، وغيرة في غُدَد الاحترام! ... ونلتقي بعد الفاصل!

يا صبر أيوب ... وزوجته أيضًا !

لو أن الأمر بيدي! ولو أن ثمة جائزة وحيدة للصبر بحوزتي، ولو أنني سأختار مستحقها بنفسي، ما ترددت في منحها لـ«رحمة بنت إفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم» زوجة «أيوب»؛ رمز الصبر على مر العصور!

قبل نحو 2500 سنة؛ عاش سيدنا «أيوب» في أرض حوران بالشام. كانت له زوجة وأبناء وحقول ومواش ومال وفير وخير كثير. وذات يوم هبطت عليه الملائكة وبشَّرته بالنبوة؛ فما زادته إلا شكرًا لله على نعمه. وكان يمعن في الشكر بإطعام الفقراء وكسوتهم، واشتهر في أنحاء الشام بعدم رد فقير ولا محروم.

كان الشيطان يراقب سيدنا «أيوب» ويحسده، فبدأ يكيد له. فراح يوسوس للناس أن «أيوب» يعبد الله لأنه يخاف على ماله وزرعه أن ينزعها منه، ولو كان فقيرًا ما عَبَدَ الله ولا شكره. أصغى بعض الناس إلى وساوس الشيطان وصدَّقوه، وراحوا يعيبون عليه ويقولون إنه لن يسجد لربه إذا ما سُلب نعمته.

وهنا جاء الامتحان الأصعب في تاريخ البشرية، عندما أراد سبحانه أن يُظهر للناس كذب الشيطان وصلابة إيمان «أيوب»؛ فكان الابتلاء، وكانت المحنة.

مات الفلاحون المشتغلون بأرضه. واختُطفت قطعان الماشية، ثم نزلت نيران من السماء فأحرقت الحقول. وفهم «أيوب» الرسالة الربانية وامتحانه في الصبر؛ فأمر أبناءه وجميع مَن حوله بالرحيل ليواجه البلاء وحده، لكنهم رفضوا، ثم هلك أولاده السبعة وبناته الثلاث، ثم ابتُلِيَ في جسده، فأصابه المرض وتقرَّح جلده، فزاد ابتعاد الناس عنه خوفًا من العدوى. ولم يزده ذلك إلا صبرًا، ومعه زوجته تشاركه الصبر، ثم وسوس الشيطان لأهالي حوران أن يطردوه خوفًا من غضب الله الذي حل عليه، وإن بقى بينهم، لنالوا نصيبهم من اللعنات. هجموا على بيته وطردوه، إلى الصحاري، فأبت «رحمة» زوجته إلا أن ترافقه أينما ذهب ومهما حدث.

اشتد المرض على «أيوب»، وكان على «رحمة» أن تخدم في المنازل لقاء لُقَيْمات لها ولزوجها. وتعود إليه في آخر اليوم لتطعمه، ثم تسهر الليل بطوله لترعاه. ونجحت «رحمة» بفضل من الله أن تصنع لزوجها عريشًا من الخوص يظلُّه من الشمس ويحميه من المطر. وظل الزوجان على هذه الحال 18 عامًا متصلاً!

وذات يوم؛ امتنع أهالي حوران عن تشغيلها وأغلقوا أبوابهم في وجهها خوفًا من الطاعون والعدوى. فاضطرت إلى قص ضفيرتها لتبيعها في السوق مقابل رغيفين من الخبز.

وهنا تختلف الروايات. فمنها ما يقول إن «أيوب» غضب على زوجته لمَّا عرف بأمر ضفائرها وعزَّت عليه نفسه، وأقسم أن يضربها إن شفاه الله. ومنها ما يقول إن الشيطان تراءى لـ«رحمة» في طريق عودتها ووسوس لها وأثار مواجعها. فما كان منها إلا أن طلبت من زوجها أن يدعو الله لعله يرفع البلاء ويأذن بالشفاء.

فثار أيوب وحلف أن يضربها مئة ضربة، وطردها من المقام معه، فلم تستمع إليه، وأصرت على رعايته حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. وفي الروايتين أجمع الرواة أن «أيوب» دعا ربه، فعفا عنه سبحانه وتعالى. وأمره أن يضرب الأرض برجله، فأنبع الله عينًا، فاغتسل بها، فذهب جميع ما في بدنه من أذى وعاد إليه شبابه. وأمره أن يشرب منها، فاكتملت عافيته؛ حتى إن زوجته العائدة من رحلة الكفاح وراء الطعام لم تتعرف عليه!

وقيل إن أولاده قد بُعثوا من قبورهم، وعادت أرضه إليه، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾.

وقيل إن أيوب حار في تنفيذ قسمه بضرب زوجته، فنزلت الآيات تقول: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

وفي تفسير ذلك؛ قيل إن الضِّغْثَ هو العُرْجون؛ أي ما يحمل التمر كعنقود العنب، وفيه مئة شِمْراخ؛ أي الأغصان الدقيقة التي تنبت في أعلى الغصن الغليظ، ليضربها ضربة واحدة هيِّنة؛ كي لا يحنث بقسمه. وقيل بل هو حُزمة من القش أو قصب الشعير.

وحاشا لله أن أتصدى لتفسير آيات الله، فلستُ من علماء الفقه.

لكنها ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ و﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ ...

فهي رحمة .. منَّا له .. ورحمة .. من عندنا.

و... «رحمة» ... زوجته!

هذا ... رَجُـلٌ!

وهو في رحم أمه ... مات أبوه في يثرب، ليُدفن هناك أثناء عودته من رحلة تجارية، بعد مرض أصابه في الطريق.

وهو في السادسة ... أخذته أمه لزيارة قبر أبيه. مكث شهرًا هناك، وفي طريق العودة كذلك وبعد نحو مئة كيلومتر، هبت عاصفة جامحة، وأصيبت أمه بالحُمَّى، وماتت وهي تضمه إلى صدرها، بعد

أن تراخت يداها وأسلمت الروح. لم يكن معه سوى الخادمة التي سارعت بحفر حفرة لها بمشاركة الطفل الملتاع، ليدفنا الأم معًا في الصحراء ويعودا إلى بلدتهما. عاد الطفل إلى قومه، ولم يغب عن ذاكرته قط مشهد أمه التي فارقها في ظروف مأساوية.

شبَّ صبيًّا فشابًّا فرجلاً ... فنبيًّا !

تزوج في الخامسة والعشرين من عمره من سيدة تزوجت قبله، وتكبره بخمسة عشر عامًا. وظل وفيًّا لها، فلم يتزوج بأخرى حتى فارقته هي بالموت بعد خمسة وعشرين سنة أخرى. هي في الخامسة والستين؛ وهو في الخمسين!

وما بين وداعه المهيب لأمه، وفراقه الحزين لزوجته؛ عاش رجلاً يحترم المرأة ويقدِّرها، يراعي مشاعرها ويساندها، يعرف قيمتها ويؤيدها.

إنه ... مُحَمَّد!

تتأمل معاملاته مع زوجاته، ورؤيته لمكانة النساء في المجتمع، فتندهش لحال رجال الدنيا والدين! فلم ير الابنة في مكانة أقل من أخيها، بل وكان يحفِّز المسلمين على المساواة بينهما، فيقول عن ابن عباس: "مَن كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها، ولم يؤْثر وُلْدَه عليها، أدخله الله الجنة"[16]. فأي عدلٍ ينادي به محمد، وأي خِسَّة يتعامل بها أتباعه الذين لم يتبعوه!

ويقول: "أكْمَل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا وألطفهم بأهله"[17].

فليس المؤمن من سلم الجميع من لسانه إلا زوجته المسكينة!

وتضمنت الآثار أن الرسول أمر زوجًا ضرب زوجته بأن يفارقها،

(16) رواه أبو داود .

(17) رواه الترمذي .

هي أم جميل بنت عبد الله، ضربها زوجها فذكرت ذلك للنبي، فقال لزوجها: هل لك أن تفارقها؟ ... ففارقها! ... فلم يُعرف عنه أنه ضرب زوجة له طوال حياته، بينما ينادي مشايخ اليوم بالضرب تأديبًا وتهذيبًا وإصلاحًا للاعوجاج المزمن للزوجات!

ويُروَى أنه أراد خطبة أم هانئ فاختة بنت أبي طالب، بعد أن فرَّق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فرَّ إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول بأدب جم، وقالت: "يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من سمعي وبصري، وحق الزوج عظيم. فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيِّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيِّع حق الزوج"! فقبل الرسول رأيها بصدر رحب واحترم رغبتها وغالب عاطفته تجاهها، وكان قد حاول خطبتها من قبل، بعد وفاة خديجة، وقال: "إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل في ذات يده"[18]. فمَن أنت أيها الخاطب المتفاخر المتباهي كي يعتريك الغضب العظيم إن تعرضت للرفض من عروس لا تراك أهلاً لها! وأهلاً بك في دنيا الغطرسة!

ويدعوه جار فارسي للغداء، فيأبى أن يجيب الدعوة حتى تصحبه زوجته. فقد دعاه جاره، فسأله إن كانت الدعوة تشملها، فأجابه الفارسي بغير وعي بمغزى السؤال: لا. فرفض الرسول التلبية، ثم عاد يدعوه بإصرار في يوم آخر، فكرر الرسول السؤال نفسه وتلقى الجواب ذاته، فاعتذر. وعندما جاءه في يوم ثالث ليدعوه بإلحاح

(18) رواه الطبراني. وذكره د. محمد عمارة في كتابه "التحرير الإسلامي للمرأة "، لكن بعض العلماء يرون ضعف الحديث، وأنه لا يليق بنبي الله أن تصده امرأة. وإن أردتم رأيي، لا أرى في ذلك سوى رجولة كاملة مكتملة !

شديد، لم يمل نبينا من طرح السؤال إياه، وعندها أيقن الفارسي أن محمدًا لن يقبل دعوته دون عائشة. فرحب بقدومها، فقام محمد ينادي عائشة، مُلبيًا الدعوة في سعادة! [19]

وعن نمط معيشته في منزل الزوجية، تخبرنا عائشة: "كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه"[20]. هو كان بشرًا من البشر. فليتنا نحن الرجال نرتضي الانتماء لصنف البشر، فنستخرج بيجاما النوم من الدولاب دون معاونة من زوجاتنا!

وكان يقدِّر المرأة كزوجة، ويفهم ماذا تنتظر الزوجة من زوجها بحيث لا يخجل من التصريح بحبها، كما كان يفعل على الملأ عندما يُسأل عن أحب الناس إليه، فيقول دون مواربة عائشة! ... ولم ير في ذلك انتقاصًا من شأن النبوة ولا جلال الرسالة ولا هيبة المكانة ... عقبال عندنا!

وكان ينصح صحابته بإيفاء حقوق الزوجية، فيقول: "ولك على جماع زوجتك أجر. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"[21]. ... فأيُّ رُقيٍّ هذا؟؟

وكان حريصًا أشد الحرص على مداعبة زوجاته والمزاح معهن كلما تيسَّر ذلك. وعن عائشة قالت: "قال لي رسول الله: إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضْبَى. قالت: من أين تعرف ذلك؟

(19) كان ذلك قبل أن تنزل الآيات الكريمة تدعو نساء النبي إلى الاحتجاب حفظًا لمكانتهن بين أمة الإسلام.

(20) رواه أحمد .

(21) رواه مسلم .

فقال: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضْبَى، قلت: لا ورب إبراهيم"[22]!

وكان يحتمل عصبية زوجاته ورفع أصواتهن عليه في أحيان نادرة، فلا يرد على العصبية بالهستيريا الذكورية المعتادة، والتي يعقبها الضرب أو الطرد أو الطلاق! ... ويحكي لنا سعد بن أبي وقاص هذه الرواية: "استأذن عمر على رسول الله وعنده نسوة من قريش (زوجاته) يكلمنه ويستكثرنه (أي يطلبن منه أكثر مما يعطيهن)، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر، قُمن فبادرن الحجاب (أي توارين خلف ستار). فأذن له الرسول، فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال النبي: عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم قال عمر: يا عدوَّات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله. فقلن: نعم، فأنت أفظُّ وأغلظ"[23]!

ومن أدبه الجم في معاملة زوجاته أنه كان لا يفاجئهن ليلاً قط عند عودته من الغزو. فكان لا يطرق باب داره ولا يزعج أهل بيته إلا في ضوء النهار وحتى العشاء. فإذا ما تزامنت عودته من ساحة الحرب مع انتصاف الليل، مكث خارج داره في مسجده حتى صلاة الفجر!... واليوم؛ يعود الرجل من جلسة الفرفشة، أو قعدة الحشيش، أو سهرة الطاولة في المقهى المجاور، فيقتحم المنزل في جلبة شديدة دون مراعاة للنائمين، ثم يزعج زوجته المستغرقة في نومها بإضاءة أنوار

(22) رواه البخاري ومسلم.

(23) رواه البخاري ومسلم.

الغرفة. وقد يأمرها في غلظة أن تقوم فورًا لإعداد الطعام، والويل لها ولأطفالها إن لم تفعل. ليلة نَكَد عليها وعلى اللي خلّفوها واللي خلِّفتهم!

ونختتم استعراض ملامح حياة سيد البشر مع زوجاته بقصة أغرب من الخيال ... كان محمد عليه الصلاة والسلام يقضي ليلته عند زوجته السيدة عائشة. وكان مُعتادًا أن يقوم ليله للصلاة والدعاء في أوقات محددة. وكان حريصًا كذلك على قضاء وقت كاف مع زوجته الحبيبة، يتجاذب معها أطراف الحديث، ويدور بينهما ما يدور بين المرء وزوجته. وفي تلك الليلة بالذات، اشتاق محمد أن يخلو بربه لفترة أطول، حَنَّ لمناجاته وقضاء الليل بطوله في عبادته، لكنه خشي أن يفعل ذلك، فتغضب زوجته منه، أو يجرح مشاعرها، أو يقصِّر في حق من حقوقها الشرعية. فذهب إليها بكل ذوق وشياكة، وسألها أن تأذن له بأن يخلو بربه. ابتسمت عائشة في وجهه الكريم، ثم قالت في رضا: أحب القرب منك، لكنني أخضع لهواك! ... وذهب نبينا محمد للاختلاء بربه، بعد أن أخذ موافقة زوجته على ذلك!

وكان الله في عون كل زوجة تقرأ هذا الكلام!

الجدال في سبيل الله!

نذوب عشقًا في مبدأ الجدال للجدال؛ في افتعال الخلافات، ثم الانتحار دفاعًا عن بقائها حية!

الرجال قوامون على النساء؟ وللرجال عليهن درجة؟

ما حدِّش قال حاجة والله!

لكن دعونا نقضي السطور التالية مع أفكار بعض علمائنا المرموقين الذين قضيت أنا الآخر معهم الأيام الماضية؛ كي أكتب لكم ما قيل في تفسير القوامة، وفي سائر عناصر الجدال المُفَضَّل لدى أبناء هذه الأمة!

يقول الغزالي: "إن جمهور الفقهاء يرى أن المرأة لا تُكَلَّف بخدمة الرجل! ولكن الأمر ليس ما يقضي به القانون؛ الأمر هنا ما تقضي به مصلحة الشركة القائمة بين مؤمن ومؤمنة؛ الأمر هنا محكوم بعاطفة الإيثار لا بشعور الأثرة".

ويقول: "وأذكر أن أحد الناس قال لي: إن القرآن يرجِّح الذكورة على الأنوثة! ويسوق لزعمه قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾؛ وهو فهم أعوج! فالجملة القرآنية وردت على لسان امرأة عمران التي كانت حاملاً، وظنت أنها ستلد رجلاً يكون سادنًا للمسجد الأقصى وقائدًا للعابدين والدارسين فيه، فلما فوجئت بإخلاف ظنها وأنها ولدت أنثى، قالت هذه الكلمة، ثم قبلت الأمر الواقع لأنه مراد الله. ودعت لابنتها ولذريتها بالصيانة والرعاية؛ فاستجاب الله الدعاء بأن أعلى قدر المولودة فوق ألوف مؤلفة من البشر".

ويقول الشيخ محمود شلتوت[24]: "وبيَّنت السورة الدرجة التي جعلها الله للرجال على النساء، بعد أن سوَّى بينهما في الحقوق والواجبات، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية؛ بحُكم القدرة الطبيعية التي يمتاز بها الرجل عن المرأة، وبحُكم الكد والعمل في تحصيل المال الذي ينفقه في سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة. وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير، كما يصورها المخادعون المغرضون".

(24) الشيخ محمود شلتوت (1893-1963) كان شيخًا للأزهر في الفترة بين 1958-1963 .

ويوجز الشيخ محمد عبده في بلاغة قائلاً: "إن القوامة تفرض على المرأة شيئًا، وعلى الرجل أشياء"!

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: "إن الآية الكريمة التي ذكرت قوامية الرجل على النساء، إنما قررت ذلك في الحياة الزوجية؛ فالرجل هو رب الأسرة، وهو المسئول عنها ... أما ولاية بعض النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعه".

ويقول الدكتور محمد عمارة: "القوامة ليست لكل رجل على كل امرأة، ولا لكل زوج على كل زوجة؛ وإنما هي للغالب من مجموع الرجال على الغالب من مجموع النساء بحكم طبيعة التميز والتكاليف في ميادين بعينها. ولقد ربط القرآن هذه الدرجة في الريادة والقيادة بالمؤهلات والعطاء، وليس بمجرد الجنس. وإذا ما تخلَّفت هذه الإمكانات عند واحد من الرجال، كان الباب مفتوحًا أمام الزوجة – إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه – لتدير هي دفة الاجتماع الأسري؛ على نحو ما هو حادث في بعض الحالات".

وأنقل إليكم بعضًا من مظاهر التمييز الجنسي الرهيب، تحت شعار القوامة والريادة والصلاحية.

أول امرأة مصرية تتولى الوزارة كانت السيدة حكمت أبو زيد في عام 1963، وكانت وزيرة للشئون الاجتماعية. وفي نصف قرن بأكمله؛ لم تتولَّ أية وزارة في مصر سوى سبع وزيرات فقط[25]!

أما عن عدد عضوات البرلمان؛ فمنذ بداية مشاركتهن في عام 1957، لم تدخل المجلس سوى 144 امرأة، منهن 19 بالتعيين. وذلك قبل اختراع الكوتة المُطبَّق في آخر انتخابات قبل الثورة!

(25) وهي تعد ثاني وزيرة في العالم العربي بعد العراقية نزيهة الدليمي .

ولم تتبوأ المرأة منصب القضاء سوى في عام 2003 بناء على قرار من السيد رئيس الجمهورية بتعيين السيدة تهاني الجبالي عضوًا في هيئة المحكمة الدستورية، ووصل عددهن إلى 42 قاضية في عام 2010.

وأول مأذون شرعي حريمي كانت أمل سليمان بعد فتوى من الشيخ على جمعة بجواز عملها، وتم تعيينها بالزقازيق في فبراير 2008، وانقلبت الدنيا!

وأول عمدة نسائية في تاريخ مصر؛ قام وزير الداخلية بتعيينها في نوفمبر من العام نفسه، وهي السيدة إيفا هابيل خلفًا لوالدها الراحل في قرية كومبوها بمحافظة أسيوط. وظلت الدنيا مقلوبة!

وأنتهي إلى مغزى تفشِّي القوامة في بلادنا؛ فأقول: ليس التشدُّق بالقوامة سوى ثغرة ينفذ منها الرجل اجتماعيًّا للسيطرة، والحاكم سياسيًّا للتسلُّط!

فعلى الصعيد الاجتماعي؛ لا أظن أن أحدنا قد مرَّ على آية كريمة تأمر المرأة بالخدمة في بيتها والقيام بأعمال الطبيخ والغسيل والتنظيف. فهي تفعل كل ذلك تفضُّلاً منها ونوعًا من توزيع الاختصاصات والمسئوليات إن كان هو يعمل وهي لا تعمل. وإن تيسَّر وجود خادمة تساعدها؛ فهذا حق شرعي من حقوقها، خاصة إذا كانت تُخدم في بيت أهلها. فدور المرأة في بيتها هو دور إشرافي في المقام الأول، والمُشرف في حاجة إلى مساعدين!

وقد وصل مفهوم التربية المُختلّ عن فكرة القوامة إلى مستويات مدهشة تتخطى فكرة قوامة الزوج إلى أفضلية الأخ على أخته في تفاصيل الحياة اليومية؛ بل وتجد أبًا أو أمًّا في منتهى السعادة والفخر بابنهما المراهق إن جاءته مكالمة تليفونية من بنت زميلة له في المدرسة، في حين تتقافز العفاريت في الوجوه؛ إن كانت المكالمة

من ولد زميل لابنتهما ... أصله راجل!

حتى ألق نظرة على المعجم الوسيط؛ تجده يعلن أن الأنثى هي خلاف الذكر من كل شيء!

وعلى الصعيد السياسي؛ يفرح الحُكَّام بمفهوم القوامة، ويعملون على ترسيخه وتثبيته في الأذهان. ولا أجد خيرًا من الليلة الرابعة والثلاثين من الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي دليلاً على اختلاط قوامة الذكر بقوامة الحاكم! فقد قال الوزير صمصام الدولة البويهي، وكان يرعى أبا حيان: "شرَّف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ ﴾. فرد عليه التوحيدي: "في هذا نظر". فقال الوزير: "وما هو؟" قال أبو حيان: "قدَّم الإناث كما قلت ولكن نَكَّر، وأخَّر الذكور ولكن عرَّف، والتعريف بالتأخير أشرف من التنكير والتقديم". استحسن صمصام الكلام. فأردف التوحيدي قائلاً: "ولم يترك سبحانه هذا أيضًا حتى قال: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾، فجمع الجنسين بالتنكير مع تقديم الذكران". ابتهج الوزير وقال: "هذا مُسْتَوْف!".

ولِمَن أعجبهم فكر فيلسوفنا العربي الشهير؛ أقول: لم يُعرف عن التوحيدي ميله لتفسير القرآن الكريم، وكل ما في الأمر وما وراء كواليس تلك الليلة البعيدة، أن الوزير صمصام كان مهمومًا من بعض شئون الحكم وعدم رضاء العامة على إدارته للبلاد، فأراد أبو حيان مشكورًا أن يرفِّه عنه ما همَّه؛ ليخفِّف سخطه وغضبه. لذا جاءت معاني تبعية النساء للرجال بمنطق لا ينفصل عن تبعية الدهماء للحاكم. فكلما انتُقص من قدر النساء والغوغاء، أُعْلِيَ من شأن الرجال والحكام!

وماذا عن الفارق بين شهادة الرجل وشهادة المرأة؟

يقول الشيخ محمد عبده: "واعتبار المرأتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذي يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثرًا له؛ وإنما هو لأن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعارضات. ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها؛ فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل. ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكُّرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها".

ويؤكد الشيخ شلتوت: "إن مسألة الشهادة المشار إليها في القرآن ليست واردة في الشهادة التي يقضي بها القاضي ويحكم؛ وإنما واردة في مقام الإرشاد إلى طرق الاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين في آيات القرآن الخاصة بالدَّيْن. وليس معنى ذلك أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ولا يحكم بها القاضي. وما لنا نذهب بعيدًا وقد نصَّ القرآن على أن المرأة كالرجل سواء بسواء في شهادات اللعان، وهو ما شرَّعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقوله شهود".

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

ويقول عمارة: "ومصدر الشبهة التي حسب مثيروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة، يجعل شهادتها على النصف من شهادة

الرجل، ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ هو الخلط بين الشهادة والإشهاد. الذي تتحدث عنه الآية. فالشهادة التي يعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارًا لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها. وإنما معيارها الوحيد تحقُّق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهد. أما آية سورة البقرة فهي تتحدث عن الإشهاد الذي يقوم به صاحب الدَّيْن للاستيثاق من الحفاظ على دينه، وليس عن الشهادة التي يعتمد عليها القاضي في حكمه بين المتنازعين. ذلك أن العبرة في الشهادة، إنما هي الخبرة والعدالة، ففي مهن مثل الطب والبيطرة والترجمة أمام القاضي تكون العبرة بمعرفة أهل الخبرة والعلم، يستوي في ذلك الرجل والمرأة".

ولا يسعني أن أعلق على كلامهم؛ إلا التنويه بملاحظة بسيطة تقول: لهواة الجدل؛ قد يقضي الإنسان عمره كله دون المثول أمام القضاء، ودون الاحتياج إلى مشورته في نزاع على دَيْن. والأهم من التركيز على الفوارق بين الرجال والنساء عند الحاجة إليهم في موضوع يندر احتياجهم فيه، هو أن نعلِّم أولادنا وبناتنا تحرِّي الصدق في القول؛ لا في المحكمة ولكن في كل أمور الدنيا.

عندئذ يمتاز الصادق بصدقه ... لا الشاهد بجنسه!

ناقصات عقل ودين؟

عن أبي سعيد الخدري قال: "خرج رسول الله في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: يا معشر النساء. ما رأيت من

ناقصات عقل ودين أذْهَبَ للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان دينها"[26].

وفي شرح هذا الحديث يقول عبد الحليم أبو شقة[27] : "إن النص يحتاج إلى دراسة وتأمُّل سواء من ناحية المناسبة التي قيل فيها، أو من ناحية مَن وُجِّه إليهن الخطاب، أو من حيث الصياغة التي صيغ بها. فمن ناحية المناسبة فقد قيل في يوم عيد، فهل نتوقع من الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم أن يحط من شأن النساء في هذه المناسبة البهيجة؟! ومن ناحية مَن وُجِّه إليهن الخطاب فقد كُنَّ جماعة من نساء المدينة اللاتي قال فيهن عمر بن الخطاب: (فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار). وأما من حيث الصياغة، فهي ليست صيغة تقرير قاعدة عامة أو حُكم عام. وإنما هي أقرب إلى التعبير عن تعجُّب رسول الله من التناقض القائم في ظاهرة تغلُّب النساء – وفيهن ضعف – على الرجال ذوي الحزم. لذلك؛ نتساءل هل تحمل الصياغة معنى من معاني الملاطفة العامة خلال العظة النبوية؟ ... وأيًّا كان مجال النقص فهو لا يخدش قواها العقلية وقدرتها على تحمُّل جميع مسئولياتها الأساسية. ومن هذه المسئوليات ما تختص

(26) رواه البخاري ومسلم.

(27) هو المفكر الإسلامي عبد الحليم محمد أبو شقة صاحب موسوعة تحرير المرأة في عصر الرسالة.

به وهو حضانة الأطفال، وهذه ما كان الله ليسندها إلاَّ إلى إنسان سوي، وما كان لنا نحن الرجال أن نأمن على أبنائنا وبناتنا في كنف إنسان عاجز مختل العقل والدين"!

ويقول د.عمارة: "إذا كان العقل في الإسلام هو مناط التكليف، فإن المساواة بين النساء والرجال في التكليف والحساب والجزاء شاهدة على أن التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث النبوي، هي تفسيرات ناقضة لمنطق الإسلام في المساواة بينهما في التكليف. ولو كان لهذه التفسيرات المغلوطة نصيب من الصحة لنقصت تكاليف الإسلام للنساء عن تكليفاته للرجال، ولكانت تكاليفهن في العبادات على النصف من تكاليف الرجال! ولكنها الرُخَص التي يؤجَر عليها الملتزمون بها والملتزمات، كما يؤجَرون جميعًا عندما ينهضون بعزائم التكاليف. إن النقص المذموم في أي أمر من الأمور هو الذي يمكن إزالته وجبره وتغييره، وإذا تغيَّر وانجبر كان محمودًا. ولو كانت الرخص التي شرَّعت للنساء بسقوط الصلاة والصيام للحائض والنفساء نقصًا مذمومًا، لكان صيامهن وصلاتهن وهن حيض ونفساء أمرًا مقبولاً ومحمودًا ومأجورًا، لكن الحال ليس كذلك؛ بل إنه على العكس من ذلك"!

وأذكر أن أشار د. عمرو خالد في أحد برامجه إلى هذا الحديث، وألمح إلى أن الأمر كله يمكن وضعه في إطار من المزاح العفيف في يوم عيد. وانقلبت الدنيا عليه ولم تقعد!

فالذين يستكثرون على رسول الله البسمة والضحكة والتباسط - مع أهله في يوم فرحة وعيد - لا يعرفون سوى التجهُّم منهجًا للوقار، والعبوس دليلاً على الاحترام!

للذكر مثل حظ الأنثيين؟

نبدأ فنقول إن الإسلام قد منح المرأة حق الميراث قبل أن تفعل أوروبا بثلاثة عشر قرنًا من الزمان!

وأتابع معكم شرح حقيقة الميراث والالتباس الحاصل بشأنه. يقول د. محمد عمارة: "إن التفاوت بين أنصبة الورثة في فلسفة الميراث الإسلامي تحكمه ثلاثة معايير: أولاً: درجة القرابة، فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب، والعكس صحيح. ثانيًا: موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال؛ فيرث الصغار أكثر مما يرث الشيوخ، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة، فبنت المُتَوَفَّى ترث أكثر من أمه – وكلتاهما أنثى –؛ بل وترث البنت أكثر من الأب، حتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن المُتَوَفَّى، وكذلك يرث الابن أكثر من الأب – وكلاهما من الذكور –. ثالثًا: العبء المالي الذي على الوارث تحمُّله والقيام به حيال الآخرين؛ وهو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى، لكنه تفاوت لا يفضي إلى أي ظلم للأنثى، بل ربما كان العكس هو الصحيح. وباستقراء مسائل الميراث نصل إلى الآتي: هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل. هناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تمامًا. وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل. وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال؛ أي أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث هو، في مقابل أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل"!

ويقول القرضاوي: "فإذا كان قد ترك لهما الأب مئة وخمسين ألفًا مثلاً، أخذ الابن منها مئة وأخته خمسين. فعندما يتزوج الابن

قد يدفع مهرًا نقدِّره مثلاً بخمسة وعشرين ألفًا، فينقص نصيبه ليصبح 75 ألفًا، في حين تتزوج أخته فتقبض مهرًا موازيًا لما دفعه أخوها لمثلها، فهنا يزيد نصيبها ويصبح 75 ألفًا، فتساويا"!

وختامًا نقول لذوي شعار "أنا باتنين من دول": بأمارة إيه يا اخويا!

الحجاب .. والنقاب؟؟[28]

أنا لا أؤمن بالحجاب!

يقولها صنفان من المسلمين. غُلاة المتشددين وغُلاة المتحررين!

كلامي غير مفهوم؟

لعل واحدًا من أبرز أسباب الخلاف التاريخي حول الحجاب بين الناس؛ هو عدم الإجماع على تفسير لغوي واضح للفظ الحجاب المذكور في القرآن. فعندما وجَّه سبحانه وتعالى أمره بشأن خصوصية التعامل مع أمهات المؤمنين زوجات الرسول، فقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾، فإن ذلك الحجاب المشار إليه ليس هو الزي الذي يستر الجسد، بل هو الحجب والاختفاء! هو الامتناع الكامل عن الظهور أمام الرجال. لذا، عندما يقول المعارضون للحجاب بمفهومه العصري أنه مجرد أمر لنساء الرسول فحسب، وأن نساء المسلمين غير ملزمات بالحجاب، فهُم ... على صواب! غير أن فهمهم لمعنى الحجاب المقصود هو ... غير صحيح! وبالمثل، فقد وقع المتشددون في الخطأ نفسه. فمع فهمهم الصحيح لمعنى الحجاب

(28) خالفت عادتي في هذا الجزء من الفصل بالاستعانة بعبارات مباشرة لعلمائنا الأجلاَّء؛ مفضلاً التعبير بكلمات بسيطة عن مهزلة هذا الخلاف العقيم!

في الآيات، إلا أنهم صادفهم خلل في التطبيق، فقاموا بفرضه على جميع نساء المسلمين!

فكأن الجانبين ينظران إلى الصورة نفسها، أحدهما يرى اللوحة بلا برواز، والآخر يرى البرواز ولا يرى اللوحة!

ولقد حرَّم الله تعالى زواج المسلمين بنساء الرسول من بعد وفاته، وهو ما يتنافى مع التشريع الخاص بغيرهن من المسلمات في كل العصور، كما كانت تطوف أمهات المؤمنين حول الكعبة في أوقات مخصصة لهن، ويُخلَى المكان من أجلهن. إذن فالاستثناء التشريعي موجود بالنسبة لجماعة محددة من النسوة. وفي الوقت نفسه؛ يأمرنا تعالى بغضِّ البصر ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾، ولا يستقيم ذلك مع واقع أن تكون المرأة مخفية عن الأعيُن؛ لا وجود لها إلا في خيال الرجل!

ثم نستكمل الفهم الهادئ غير المتشنج لحقيقة الأمر؛ لأن المنطق هنا يغلب كل هياج في أي من الاتجاهين!

يقول تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾. ولا تحتاج الكلمات لكثير من الفطنة والنباهة؛ لتبيُّن أمرين متلازمين يرد كل منهما على وجهة نظر أحد طرفي المعركة الحجابية الوهمية!

أولهما: نقول لغُلاة التشدُّد؛ إن كان المقصود من الأمر الإلهي هو إسدال الخمار على الوجه، لقال جل شأنه: وليضربن بخُمُرهن على وجوههن؛ ما دامت تغطية الوجه هي غاية المراد من رب العباد؛ وصولاً إلى النقاب الإجباري على نساء المسلمين. لكن بالتطبيق العملي لضرب الخمار على الجيوب مرورًا بالوجوه، يتضح أن المرأة ستعجز عن التنفس فضلاً عن الرؤية؛ فلجأت للبرقع كقطعة منفصلة في

«عدّة» النقاب، تداري به المرأة النصف الأسفل من وجهها، وتترك منفذًا لعينيها تطل بهما على الدنيا!

وثانيهما: نقول لأعداء الحجاب، إن كان ضرب الخمار على الجيوب، أيًّا كان المقصود بالجيوب في جسد المرأة من صدر أو بطن أو جنب، مذكورًا في الآية الكريمة، كأمر واضح وضوح شمس يوليو في وسط النهار، فكيف نضرب الخُمُر على الجيوب، دون المرور بالرأس والرقبة؟! وهذا ليس سؤالاً في الدين، وإنما هو سؤال في الفيزياء! علامَ يرتكز الخمار أو أيًّا كانت المادة التي ستهبط من أعلى إلى أسفل لتستر الجيوب وتغطي العيوب وتغفر الذنوب، إن لم تمر عبر رأس وكتف ورقبة؛ كقاعدة ثابتة ينطلق منها الخمار المضروب إلى الأسفل دون أن تقوده الجاذبية الأرضية إلى السقوط بين القدمين؟!

ونعاود توجيه الحديث إلى الطرفين معًا، فنقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾. وقد انقلبت الدنيا ولم تنعدل شرحًا لمعنى إلا ما ظهر منها؛ بدءًا بستر كل الجسد باعتبار أن الملابس هي الزينة الظاهرة المتحركة على أرض الوطن دون ملامح لشخصية صاحبة الملابس!، ومرورًا بستر الجسد ما عدا الكفين والوجه؛ وهو ما أجمع عليه معظم فقهاء العصور المتلاحقة، وانتهاءً بستر مواضع هينة يكفي لسترها المايوه البيكيني وحده، وهو ما يصر عليه عدد غير قليل من مسلمي العصر الحديث! وكل واحدة على قد نيتها وبقدر زينتها!

خلاصة الكلام ... إن تغاضينا عن المعنى الأصلي للحجاب بالاختفاء عن النظر، انتقالاً لمفهومه العصري بالاحتشام وستر الجسد، فيجب الوعي بآداب الحشمة. والناظر إلى الطرقات –اليوم - يجد من بين

كل مئة محجبة تسعًا وتسعين مُهرِّجة، تداري شعرها الأشعث المنكوش، وتبرز كافة تضاريس جسدها بما فيها ألوان ملابسها الداخلية!

وإن تمسَّكنا بالمعنى الفعلي للحجاب بملازمة جدران البيوت – دون الالتفات للمقصودات بالأمر الإلهي –، فنكون كمَن يساوي في العقوبة بين الزانية والشريفة! فالمعروف أن حد الزنا في مرحلة من مراحل تدرُّج التشريع، جاء في سورة النساء كما يلي: ﴿ اللاتي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾. فإذا كان الله تعالى قد جعل لهؤلاء العاصيات مخرجًا من الحبس الأبدي بأن شرَّع الجلد لغير المحصن، أفلا يبدو أغرب من الخيال أن يُخفِّف سبحانه العقوبة على الفاسقة، ويمنحها حريتها بعد الجلد، بينما يجعل من الحبس الانفرادي في المنزل صفة ملازمة للمسلمة العفيفة دون إثم ارتكبته سوى كونها أنثى؟!

وكلمة أخيرة .. يقول الحديث الشريف: "إن مُحَرِّم الحلال، كمُحِلِّ الحرام"[29]. ... وفي ربط هذا الحديث بما سبقه من كلام، فليتنافس المتنافسون!

بميت راجل!

تظنها منكسرة، مهيضة الجناح، ساكتة، ساكنة، لا رأي لها، ولا عمل لها، إلا الخدمة في البيت، فلا تغادره إلاَّ إلى قبرها؟!

أنت غلطان!

(29) رواه الطبراني .

فقد كانت المرأة في زمن محمد عليه الصلاة والسلام تشتغل بالأعمال المهنية المختلفة، بقصد معاونة زوجها الفقير الذي لا يكفي حاجات بيته، أو بغرض كسب مال تبذله في وجه من وجوه الخير، أو من أجل تعليم نساء المؤمنين. ومن بين هؤلاء؛ سيدات عملن في الزراعة، وفي رعي الغنم، ومنهن مَن عملن في النسيج وصُنع الأردية، وعشرات عملن في التمريض ومداواة الجرحي وقت الحروب. بل وكانت هناك امرأة تدير ورشة نجارة صغيرة!

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه؟ فإن لي غلامًا نجارًا، قال: إن شئت. فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي على المنبر الذي صُنع له"[30].

ومن النماذج المبهرة للسيدات المسلمات، الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس التي كانت في طليعة الداخلين في دين الإسلام. وتميَّزت بالعقل الراجح والرأي النابه. واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة؛ حتى إنها كانت معلمة حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين. واشتهرت برواية الأحاديث عن رسول الله. وكانت كثيرًا ما تحاوره وتناقشه في أمور الدين والدنيا. وبلغت مكانتها في دولة الإسلام الوليدة الدرجة التي دفعت عمر بن الخطاب إلى أن ولاَّها ولاية الحسبة أي وزارة التجارة بلُغة العصر، تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق من الرجال والنساء! ... هي أول وزيرة في تاريخ العرب والمسلمين!

وفي ذلك الشأن، يقول المفكر عبد الحليم أبو شقة: "عندما يقول المتشددون إن عمل المرأة المهني محظور ولا يكون إلا عند الضرورة،

(30) رواه البخاري

والضرورات تبيح المحظورات، فهكذا يصبح العمل المهني في مستوى أكل الميتة مخافة الهلاك والعياذ بالله"!

وهناك من النساء من سبقت إلى الإسلام، ثم ساهمت في إيمان الآخرين. فإن أخت عمر بن الخطاب قد سبقته إلى الإسلام، وكانت سببًا في إيمانه.

وشاركت المرأة في الهجرة إلى الحبشة؛ إذ هاجرت 18 امرأة مع 38 رجلاً. وشاركت في تحمُّل العزل والحصار الاقتصادي المفروض من قريش على المؤمنين لمدة ثلاث سنوات؛ بل وتحملت أكثر بحُكم مسئوليتها المباشرة عن الأطفال.

وكذلك شاركت أسماء بنت أبي بكر في التخطيط والتنفيذ والخداع يوم الهجرة من مكة إلى المدينة.

ولم تكتف المرأة المسلمة بالعمل في وقت السلم؛ بل شاركت في الحروب؛ لا في الصفوف الخلفية فحسب مداواةً للجرحى وسقايةً للعطشى؛ بل في مقدمة الصفوف، تحمل سيفها وتمسك درعها وتقاتل في سبيل الله!

ففي موقعة أحد؛ شاركت نسيبة بنت كعب أم عمارة في المعركة في صفوف الساقيات. وعندما حدث ما حدث، واختل ميزان التفوق الحربي لصالح المشركين بفضل التفاف خالد بن الوليد الماكر، نظرت أم عمارة ملتاعة إلى ما جرى من هرج ومرج، وانتبهت إلى تشتُّت صفوف المسلمين وانكشاف رسول الله أمام متعقبيه من الكفار. ثم سمعت ابن قميئة يصرخ قائلاً: "دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا"، وهنا لم تشعر أم عمارة بنفسها، فالتقطت سيفًا من أرض المعركة وهرعت لنجدة رسول الله. وتزامن وصولها مع وصول

الصحابي الجليل مصعب بن عمير، فظلت تستقبل طعنات ذلك الكافر بصدرها وكتفيها بثبات عجيب، وهي تناوشه بسيفها، لكنها لم تقدر على هزيمته لفارق القوة الجسمانية الرهيب، ولأن ابن قميئة كان له درعان يحتمي خلفهما. وفي مدح أم عمارة قال رسول الله: "ما التفتُّ يمينًا ولا شمالاً يوم أُحُد إلا وأراها تقاتل دوني". دافعت أم عمارة عن النبي بكل ما أوتيت من قوة؛ حتى استعاد المسلمون وعيهم والتفوا من جديد حول رسولهم وأجهزوا على ذلك المعتدي؛ لتسقط أم عمارة مُثخنة بجراحها، وقيل فقدت ذراعيها، بعد أن اطمأنت لنجاة محمد؛ لتنجو هي الأخرى من الموت بعد فترة علاج طويلة ... فهكذا كانت تقول المرأة المسلمة لبيك يا رسول الله ... قولاً وعملاً!

أما أم حرام بنت ملحان؛ فقد وعدها الرسول أن تكون ممن يركبون البحر غُزاة في سبيل الله مثلما رأى في رؤياه، وقد تحقق لها ذلك عندما اشتركت في الأسطول الإسلامي الذي غزا قبرص واستُشهدت ودُفنت هناك. ولها الآن مزار في بيروت، يطلق عليه اللبنانيون مزار ستي أم حرام!

وأما أسماء بنت يزيد بن السكن ابنة عم معاذ بن جبل؛ فقد شاركت في موقعة اليرموك، وتمكنت من قتل تسعة من جنود الروم بعمود خيمتها!

وقام أمير المؤمنين عثمان بن عفان بتولية حبيب بن مسلمة الفهري قيادة جيش من المسلمين لمحاربة الروم. وكانت زوجته أم عبد الله بنت يزيد ضمن جنود هذا الجيش. وقبل أن تبدأ المعركة الحاسمة، وبينما يتفقد حبيب أحوال جيشه؛ إذا به يلتقي بزوجته من بين صفوف جنده، فسألته: أين ألقاك إذا حمي الوطيس وماجت الصفوف؟ فأجابها قائلاً: تجديني في خيمة قائد الروم أو في

الجنة! واندلع القتال، وحارب المسلمون بشجاعة فائقة، ونصرهم الله على الروم. وسارع حبيب في اتجاه خيمة قائد الروم المهزوم، وعندما وصل إلى باب الخيمة، وجد أم عبد الله وقد انتهت من القتال قبله، فسبقته واحتلت مركز قيادة العدو!

وسجَّل التاريخ اسم غزالة زوجة القائد الشجاع شبيب بن يزيد الذي دوَّخ بني أمية، وهزمهم مرارًا وتكرارًا؛ فقد أقسمت غزالة لتدخلن المسجد الجامع بالكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورتي البقرة وآل عمران، وعندما علم الحجاج - وهو القائد الأموي الدموي الرهيب بقدومها وزوجها - فرَّ من الكوفة! ودخلتها غزالة جنبًا إلى جنب زوجها شبيب وأمه، وأوفت بنذرها؛ ليسجل الشاعر عمران بن قحطان هذه الواقعة في أبيات اشتهر شطرها الأول دون معرفة ملابسات الإلقاء!

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة رَبْدَاء تَجْفَلُ من صفير الصافر
هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالة في الوَغَى بل كان قلبُك في جَناحَي طائر

كانت المرأة تشارك في الحياة وفي صُنع القرار وفي تدبير شئون الأمة، بالمعنى الحرفي للمشاركة؛ لا مشاركة رمزية بالكوتة في مجلس الشعب!

ويكفي أن نعلم أنه في يوم وفاة الرسول كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد نحو 124 ألف مسلم ومسلمة. وعندما رصد علماء التراجم والسير أسماء النخبة التي تميَّز عطاؤها في مختلف الميادين، رصدوا أسماء ثمانية آلاف من هؤلاء الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء!

ألف رائعة ورائعة ... لا ألف ليلة وليلة!

سعيد وسعيدة!

«حتى تكون أسعد الناس»، «أسعد امرأة في العالم»؛ هما كتابان للمفكر السعودي الإسلامي البارز الدكتور عائض القرني، أحد أهم كُتَّاب العصر. ومن البديهي عندما تشرع في قراءة الكتابين، أن تحسبهما نظيرين؛ أحدهما يشرح مفهوم السعادة للرجل، والآخر يقدم منابع السعادة للمرأة. وهذا صحيح.

لكن القارئ سوف يفاجأ بأن سعادة الرجال مرتبطة بكل أمور الدنيا تقريبًا؛ غير مشتملة – إلا فيما ندر – على إرضاء زوجته والحرص على مشاعرها أملاً في حياة اجتماعية سليمة، بينما تتنوع النصائح والعظات للمرأة في ميادين شتى، ويبقى ميدان رضا الزوج وطاعته هو أوسع الميادين ومحور طريق السعادة؛ في حين يتواري عدد من أمور الدنيا المُلحَّة في الشوارع الجانبية والخلفية!

وكي لا أطيل على القارئ؛ دعنا ندخل في التفاصيل.

من كتاب «أسعد امرأة في العالم» تطل علينا وصية جامعة من خير الوصايا المأثورة عن نساء العرب؛ وهي وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس بنت عوف ليلة زفافها؛ إذ تقول: "أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلَّفت العُشَّ الذي فيه درجت، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغِنَى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلقن ولهن خُلق الرجال. أما الأولى والثانية: فالخضوع له بالقناعة، وحُسْن السمع له والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقُّد لمواضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشُمُّ منك إلا أطيْب ريح. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقُّد لوقت نومه وطعامه، فإنَّ تواتُر الجوع مَلْهَبة،

وتنغيص النوم مَغْضَبة. وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله، ومَلاك الأمر في المال حُسْن التقدير، وفي العيال حُسْن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعْصي له أمرًا، ولا تُفْشي له سرًّا، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدرَه، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان حزينًا، والكآبة بين يديه إن كان فرحًا".

ورغم إعجابي الشديد بالوصية، إلا أن تعجُّبي فاق إعجابي!

فقد كنت أتوقع وأنتظر وأتمنى أن أجد وصية مماثلة في الكتاب الموازي من أب لابنه أو أخ لأخيه أو شيخ جامع لمريديه، أو من أي عابر سبيل لجالس على رصيف!

لا شيء بالمرة. فإن لم يحتفظ لنا التاريخ بمثل هذه الوصية، فليكتب لنا الدكتور القرني واحدة!

وأكثر من ذلك إن كتابه الأشهر «لا تحزن» وهو موسوعة اجتماعية إسلامية ممتازة، لن تجد فيه إشارة لدور المرأة أو الزوجة ومكانتها، وكونها أحد أسباب ابتعاد الحزن ومجلبة السعادة؛ إلا في إشارة عابرة تحت عنوان "رفقًا بالقوارير" في ستة أسطر من إجمالي 584 صفحة يتألف منها الكتاب الرائع!

وفي كتاب «أسعد امرأة في العالم» يستشهد الدكتور عائض بهذه الحكاية كي ينصح المرأة المسلمة بما فيه الخير والصلاح، فيقول: "عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها كانت تطوي الأيام جوعًا، وقد رآها زوجها الإمام عليٌّ رضي الله عنه يومًا، وقد اصفر لونها، فقال لها: ما بك يا فاطمة؟ قالت: منذ ثلاث لا نجد شيئًا في البيت! قال: ولماذا لم تخبريني؟ قالت: إن أبي رسول الله قال لي ليلة

الزفاف: يا فاطمة، إذا جاءك عليٌّ بشيء فكُليه، وإلا فلا تسأليه! ثم يكمل: لكن كثيرًا من النساء قد تخصَّصن في تفريغ جيوب أزواجهن، فالواحدة منهن لا تطيق أن ترى في جيب زوجها مالاً، فتعلن حالة الطوارئ في المنزل ولا تهدأ حتى تسلبه ما معه من مال".

إذن، مطلوب من الزوجة الصبر على قلة موارد زوجها، وهذا أمر سليم. أما أن نتهم معظم النساء بتفريغ جيوب أزواجهن، ولا نلقي بالاً لبُخْل الرجال واختلال أولوياتهم، فهذا مما يزيد الدهشة؛ بل ويأتي الرد على مثل هذه الأفكار من سُنَّة نبينا محمد وسيرته... فعن أبي هريرة، قال رسول الله: "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة[31] ، ودينار تصدَّقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك"[32].

ويجوز إنفاق الزوجة من مال زوجها دون علمه إن كان بخيلاً: عن عائشة: "أن هندًا بنت عتبة قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"[33].

أما في كتاب "حتى تكون أسعد الناس"؛ فالمواعظ والحكم تملأ جنبات الكتاب، وأنتقي لكم هنا، ما جاء في شأن المرأة : "امرأة حسناء تقية، ودار واسعة، وكفاف من رزق، وجار صالح، نِعَم جهلها الكثير. مَن عنده زوجة وبيت وصحة وكفاية مال، فقد حاز صفو العيش،

(31) أي عتق رقبة .

(32) رواه مسلم .

(33) رواه البخاري ومسلم

فليحمد الله وليقنع، فما فوق ذلك إلا الهَمّ. مَن لم يسعد في بيته لن يسعد في مكان آخر، ومَن لم يحبه أهله لن يحبه أحد، ومَن ضيَّع يومه ضيَّع غده. أربعة يجلبون السعادة: كتاب نافع، وابن بار، وزوجة محبوبة، وجليس صالح، وفي الله عوض عن الجميع. البهجة: وجه جميل، ورَوْض أخضر، وماء بارد، وكتاب مفيد مع قلب يقدِّر النعمة ويترك الإثم ويحب الخير. متى يسعد مَن له ابن عاق، وزوجة مشاكسة، وجار مؤذ، وصاحب ثقيل، ونفس أمَّارة، وهوى متبع. رفقًا بالقوارير ولُطفًا بالقلوب ورحمة بالناس ورويدًا بالمشاعر وإحسانًا للغير وتفضُّلاً على العالم، أيها الناس". ثم هذه الوصية الأخيرة والتي لا أدري إن كانت موجهة للرجل أم من الرجل!: "لو مَلَكَت المرأة الدنيا، وسيقت لها شهادات العالم، وحصلت على كل وسام ... وليس عندها زوج، فهي مسكينة"!

والملاحظة العامة على سائر النصائح التي وُجِّهت للرجل بخصوص المرأة؛ أن المرأة هي بعض من كل. هي من بين مُجلبات السعادة، ولم تستحق نصيحة واحدة بشأنها وحدها دون إدراجها مع الصحة والمال والبيت والجار والكتاب والصاحب، بل والروض الأخضر!

ولم تأت نصيحة منفردة؛ إلا عندما أقرَّ الكاتب وأعلن أن المرأة دون رجل ... ولا حاجة!

هلوسة!

لا توجد دعاية مضادة للإسلام أفضل مما يفعله هؤلاء!

أصدر الشيخ أبو سيد - الذي يدير أكبر شبكة محاكم شرعية في

بريطانيا - فتوى إمبريالية تقول: "إن الاغتصاب في الزواج ليس جُرْمًا، ولا يجوز تقديم المغتصب للمحاكمة؛ لأن الجنس جزء من الزواج، ولا يمكن معاقبة الزوج على اغتصاب زوجته"!

وعندما سألته صحيفة الديلي إكسبريس البريطانية عن فتواه، أكدها بقوله: "ينبغي أن نفهم أنه لا وجود للاغتصاب داخل إطار العلاقة الزوجية؛ فهي حلاله. وربما يكون ذلك عدوانًا، أو نشاطًا غير لائق. وأرى أن «عدوان» إبلاغ الشرطة عن مثل ذلك الزوج يفوق بمراحل «العدوان» الطفيف المتعلق بإجبار امرأة على الجماع على غير رغبتها". وأنهى الشيخ أبو سيد حواره جازمًا أن مفهوم الاغتصاب داخل الزواج ليس مفهومًا إسلاميًّا.

ونقول للشيخ أبو سيد؛ كفاك اغترابًا في بلاد الغربة وارجع لبلدك. سيد بيدوَّر عليك!

أما الشيخ تاج الدين هلالي؛ وهو مفتي أستراليا من أصل مصري، فقد أدلى بتصريح قال فيه: "لو تُرِكَت قطعة من اللحم في الشارع دون غطاء، وأكلتها القطط. فهذا لَيس ذنب القطط، وإنما هو ذنب اللحمة. ولو بقيت المرأة بمنزلها أو خلف حجاب، فلن تتعرض لأية مشاكل".

ونقول للهلالي: ليست النساء لحومًا حمراء، وليس الرجال وحوشًا هائمة. ولا تصلح فتواك الأسترالية إلا في إحدى غابات أستراليا المفتوحة!

وفي هولندا؛ أنشأ مسلم من أصل تركي يُدعَى أوراج متجرًا لبيع المواد الجنسية على الإنترنت. وأكد في دعايته لمتجره أنها منتجات حلال لا تحتوي على مكونات مُحرَّمة وفقًا للشريعة الإسلامية.

ويعرض العشيرة – وهو عنوان الموقع الإلكتروني – مُحفِّزات حسية للجنسين؛ مثل زيوت للتدليك ومنتجات تعزيز الرغبة الجنسية. ويفاخر الموقع بأنه أول متجر إسلامي للبضائع الجنسية، وأنه لا يبيع المنتجات الحرام كأفلام البورنو أو الدمى المخصصة للمتعة الحسية.

وأعلن صاحب الموقع في مقابلة مع السي إن إن: "إننا نهتم بالصحة الجنسية للمتزوجين المسلمين وغير المسلمين، وفلسفتنا تقوم على ذلك. وإلى جانب تأمين معيشتي؛ فإنني أريد بمشروعي أن أغيِّر من صورة الإسلام النمطية بوصفه دينًا مُعاديًا للمرأة، وتشجيع التفكير الإيجابي بشأن هذه العقيدة"!

شكر الله سعيك، وغفر الله ذنبك، ومتَّعَكَ في جنته بالحور العين ولذَّات النعيم، كما متَّعْتَ عباده في الدنيا بالسكس الحلال في أحضان الحريم!

المهر ... يرحمكم الله!

وقف عمر بن الخطاب يخطب في المسجد. وكان مستاءً من مغالاة البعض في المهور، واستشهد بنبينا محمد في زيجاته وزيجات بناته. وأراد أن يجتهد ليضع سقفًا للمهور، وقدَّره آنذاك بأربعمئة درهم. وعندما همَّ بمفارقة منبره، اعترضته إحدى السيدات، وقالت بصوت عالٍ أذهل كل الحاضرين: أيعطينا الله ويمنعنا عمر؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾. علت همهمات الحضور، فكيف بامرأة أن ترد

على أمير المؤمنين، بل وتغلِّطه، وهو مَن هو في المكانة، وفي الشدة وفي الهيبة؟ استمع عمر إلى السيدة الشجاعة في تأنٍّ، ثم ارتد إلى منبره، فصعد وقال: "اللهم عفوًا، كل الناس أفقه من عمر. كنت قد نهيتكم أن تزيدوا على أربعمئة، فمن طابت نفسه فليفعل"!

وتشير بعض الروايات أنه قال على الملأ: أصابت امرأة وأخطأ عمر. واستكثر عدد من العلماء والمؤرخين أن يقول عمر ذلك. ولكنهم في استكثارهم هذا، لم يلتفتوا إلى أن كل الناس أفقه من عمر التي أجمعوا عليها، تشمل الرجال والنساء معًا. فهنا لم تُصِبْ امرأة ويخطئ عمر، بل يصيب كل الناس ماعدا عمر!

وفي الحديث الشريف: "إن من يُمْن المرأة: تيسير خطبتها وتيسير صداقها، وتيسير رحمها – أي ولادتها"[34] . يقول عليه الصلاة والسلام تيسيرًا، ولم يشر قط إلى بخس المرأة أو إلغاء المهور!

إن الزواج ليس بالنزوة العابرة، إنه بنص القرآن ميثاق غليظ. فإذا ما وافق الزوج على دفع مهر معين، فقد بات في ذمته. وإذا عُقد القران، وتكاسل الرجل عن الوفاء بما تعهَّد به، فإن الحديث الشريف يشرح له فداحة إثمه: "أيما رجل تزوج امرأة، على ما قلَّ من المهر أو كثر، ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زان"[35].

كما حرَّم الإسلام «نكاح الشغار»، وهو زواج سائد في الجاهلية، إذ كان يزوج الرجل ابنته لرجل آخر، على أن يزوجه الآخر ابنته على طريقة التبادل، فلا يدفع أيهما مهرًا لابنة الآخر! فأتى الإسلام

(34) رواه أحمد

(35) رواه الطبراني.

ليلغي هذا الهراء الذي يعد الزواج مجرد صفقة تجارية، أبدلنا فيها سلعة بأخرى! فالمهر حق الزوجة لا حق أبيها.

والمهر هو أول الحقوق التي أوجبها الإسلام للمرأة على الرجل[36]، فيقول تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾، والنِّحْلة هي الهدية؛ وليست مقابلاً للاستمتاع بالمرأة كما يتخيل البعض!

ولا يجوز الزواج دون مهر. فهو هدية يقدمها الرجل بين يدي عقد الزواج. وتكون بحسب قدرة المُهدي، فلا حرج في القليل ولا مانع من الكثير، ما دام في حدود الطاقة. أكثر من ذلك، فإن المهر يبقى كاملاً في ذمة الرجل وإن مات قبل الدخول بزوجته!، ولا يسترده إذا طلقها، بل ولا يسترده إذا لاعن امرأته[37] ، وفقط يسترده أو بعضه في حالة الخُلْع.

وإليكم أدلة تاريخية على حتمية المهر وأهميته، أيًّا كانت ظروف الزوج!

عندما غادر سيدنا موسى مصر خائفًا إلى أهل مدين بالشام، ضاق به الحال ولم يستقر به المقام سوى عند لقائه مصادفة بابنتي سيدنا شعيب عند البئر، ومساعدتهما في السقاية، ثم دعوته للقاء أبيهما. وفي ذلك اللقاء تم الاتفاق على زواج موسى من ابنة شعيب، ولا ننسى أن موسى كان أفقر خلق الله وقتئذ، ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ

(36) فقط نضيف هنا تفصيلة صغيرة. فالمهر أيام الرسول يشمل المهر والشبكة في أيامنا هذه، فإن قال قائل، أن الشبكة ليست من الإسلام، نقول له أن الشبكة تقوم مقام الهدية أي المهر، أما المهر فيدفع مقابله أهل الزوجة مثله أو ضعفه لتجهيز شقة الزوجية، وهو ما لم يكن الحال في سالف الزمان، فكان الرجل يقدم المهر والبيت والنفقة ولا يطلب من امرأته شيئًا في المقابل!

(37) أي إذا اتهم الرجل زوجته بالزنا ولم يكن له شهود على ذلك.

فَقِير ﴾. ولم يمنعه هذا من دفع مهر محترم. عشر سنوات من عمره خدمة لـ «أبو العروسة»!

يقول تعالى: ﴿ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

فلا أكبر من هذه الآيات دليل على أن الفقر لا يقف حائلاً بين الرجل وبين إعطاء المرأة حقها الشرعي!

وهناك قصة زواج أم سليم من أبي طلحة في بدء انتشار الإسلام. فعندما تقدم الرجل لخطبتها، قالت: "والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهري، وما أسألك غيره". فأسلم الرجل وكان ذلك مهرها![38] ... فإن قال قائل أنه لم يدفع شيئًا، أو قال آخر أنه كسبان في الحالتين، مرة بإسلامه وأخرى بزواجه ممن أحب، أقول لهما: نعم، هو الرابح، لكنه تخلى عن عقيدته من أجلها، وتغيير عقيدة بأخرى حتى ولو للأفضل والأسلم هي تضحية لا نظير لها.

بدلاً من ذلك؛ نسمع اليوم عمن يفسخ خطوبته لأن العروس لم تعجبها الشقة، فيقرر البحث عن زوجة تقبل بالشقة، لا شقة تقبلها الزوجة. فالشقة هي الركيزة والأساس، والعروس إلى زوال!

وهناك قصة زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت محمد. فقد قال له رسول الله: أعطها شيئًا. قال: ما عندي. قال: فأين درعك

(38) رواه النسائي

الحطمية؟ قال: هي عندي. قال: أعطها إياه![39] ... كان عليٌّ لا يملك من حطام الدنيا شيئًا سوى درعه التي يحارب بها، وكانت هي مهر زوجته. فليست مشكلة رجال هذا الزمن في ضيق ذات اليد؛ بل في ضيق الأفق والرغبة في الظفر بزوجة بأزهد الأثمان، وليه تدفع كتير لمَّا ممكن تعمل عبيط!

وأختم بقصة يرويها لنا الصحابي عقبة بن عامر: قال رسول الله لرجل: أترضى أن أزوجك فلانة؟ قال: نعم، وقال للمرأة: أترضين أن أزوجك فلانًا؟ قالت: نعم، فزوَّج أحدهما الآخر. فدخل بها الرجل ولم يفرض لها صداقًا، ولم يعطها شيئًا، وكان ممن شهدوا الحديبية. وكان كل من شهد الحديبية له سهم بخيبر، فلما حضرته الوفاة، قال: إن رسول الله زوَّجني فلانة، ولم أفرض لها صداقًا، ولم أعطها شيئًا، وإني أُشهدكم أني أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر. فأخذته، فباعته بمئة ألف درهم[40].

أينعم ... مئة ألف درهم من 1400 سنة!

على هامش العُمْرة

ولأنه من الصعب عليَّ أن أقضي عشرة أيام كاملة دون متابعة أخبار مصر، قررت أثناء أدائي لمناسك العمرة في صيف 2010، أن أفتح التليفزيون في غرفتي بالفندق ذات ليلة.

وجدتني أمام برنامج «البيت بيتك» الذي تغيَّر اسمه في ظروف

(39) رواه النسائي.

(40) رواه أبو داود.

غامضة إلى «مصر النهارده» في محاولة ماسخة لمحاكاة «القاهرة اليوم»؛ وهو ما يذكِّرني بكرة قدم اشتريتها صغيرًا، وكان مكتوبًا عليها أديباس بدلاً من أديداس. وقد فرقعت الكرة المسكينة في يومها الأول إثر حادث أليم، بعد اصطدام طفيف بفرع شجرة هزيل في حوش بيتنا.

ما علينا .. استهلَّت مقدمة الفقرة كلامها عن موضوع الليلة. ويتمثل في مطالبة بعض منظمات المجتمع المدني بتعديل قانون الأحوال الشخصية؛ بأن يُطَبَّق نظام الثروة المشتركة المعمول به في الغرب في حالة انفصال الزوجين، بأن تنال الزوجة نصيبها من الثروة التي تكونت خلال فترة الزواج، وذلك نظرًا لدورها المنطقي في تحصيل هذه الثروة؛ بالوقوف إلى جانب الزوج ورعايته ودعمه وتربية الأطفال ونحو ذلك.

واستضافت الفقرة سيدة تمثل المنظمات الحقوقية، كما استضافت واحدًا من علماء الدين أعرفه جيدًا جدًّا؛ إذ كان يلقي خطبة الجمعة في زاويتنا الصغيرة بمصر الجديدة منذ عشرين عامًا. تكلمت السيدة، فأشارت إلى حرص الزوج على الادخار في حسابات بنكية تخصه، أو شراء أصول ثابتة باسمه، فتتراكم مدخراته عامًا بعد الآخر. فإذا ما اختلف الزوجان، يطلقها ويطردها في الشارع بلا عائل وبلا مال؛ لأنها في المعتاد تكون بلا عمل مُفَضِّلة رعاية شئون بيتها ... وتحدَّث رجل الدين، فأكد أن الإسلام كفل لها حقوقها الشرعية من نفقة وخلافه، وأنها لا تخرج إلى الشارع بل تعود إلى بيت أهلها، وأن الأصل في الزواج هو المودة والسكن والرحمة. فإذا ما افترق الاثنان، لا يحق لها أن تستولي على جزء من ماله تشبُّهًا

بعادات غربية بعيدة عن الدين.

انتهى الجدال كما بدأ، بالتمسك المعتاد لطرفي الحوار؛ كُلٌّ بوجهة نظره. وعُدْت لتأمُّل ما دار أمامي.

هل من الإسلام أن تكافح الزوجة مع زوجها لسنوات طوال، فتهتم بكل احتياجاته، وتُلَبِّي كل رغباته، وتُرَبِّي له أطفاله، وتُضَحِّي بفرصتها في العمل وتحصيل دخل ثابت لها في سبيل استقرار الأسرة، ولا يكون من أبسط حقوقها أن يدَّخر الزوج بعضًا من فائض دخله في حساب باسمها؟

إذا كان الزواج مشروعًا رأسماليًّا، يشارك فيه اثنان بمجهودين، فلمَ يجني أحدهما أرباح المشروع، ويعيش الآخر على فضلات إحسان الأول عليه؟

لن أبخس الرجل حقه إن طالبته أن يدَّخر كل ثروته في حساب زوجته إن كانت لا تعمل، فإن حدث الانفصال فلا زال لديه عمله الذي يحقق له العائد المستمر. أما هي وأطفالها؛ فسوف تكون تلك الثروة - التي شاركت في تحقيقها بشكل مباشر وفعال - هي السند الوحيد لها بعد كل هذه السنوات التي منحته فيها شبابها وصحتها وجهدها لتثبيت أركان الأسرة.

بلاش يا سيدي! افترض معي أن لديك خادمة ترعاك لمدة عشرين سنة. تجهز ملابسك وتعد طعامك وترتب كافة شئون بيتك. ألا تستحق في نهاية المدة ولو عشرة في المئة نظير خدماتها؟ يا أخي أنت تدفع 12 % خدمة في وجبة في مطعم أو ليلة في فندق بخلاف الضريبة والبقشيش!

ونعود إلى موضوعنا. ونتوقف أمام إلصاق كل مهازل الرجال وجبروتهم بالإسلام. ونبتهل إلى الله أن يتغير هذا المجتمع المُعَوَّق؛

ذلك المجتمع الذي تعاني فيه الزوجة أبشع المعاناة من الزوج، وتعاني فيه الفتاة أبشع المعاناة من مشروع الزوج.

ونتوقف أمام حقيقة بشعة، أن الراغبة في الزواج والمخطوبة والمتزوجة كلهن في الهواء سواء. تبحث جميعهن عن زوج يتسم بالرجولة والمسئولية، فلا يكون ذلك مثل البحث عن إبرة في كومة قش؛ بل يكون ذلك مثل البحث عن قشة في كومة من الإبر!

فلا تحظى الفتاة اليوم بذلك الرجل المسئول – إن وُجِد – إلا بعد أن تتعرض للوخز مرات ومرات من أشباه رجال كالإبر؛ لا يصدر من أفعالهم سوى كل ما يؤلم ويدمي.

ما أتعس الأمة التي يفتري فيها رجالها على نسائها.

التي تنتهي فيها حياة المرأة بكلمة من الرجل إن طلقها.

وتبدأ فيها حياة المرأة بكلمة من الرجل إن تنازل وتزوجها.

فلا استحقت المرأة الطرد بعد أن بذلت حياتها في سبيله.

ولا استحق الرجل نعمة الزواج منها إن حَسِبَه تَفَضُّلاً منه.

بعد إذنكم؛ دمي اتحرق. أنزل أطوف حول الكعبة وألمس ستارها وأقبِّل حجرها، أنا وزملائي من الرجال. أما السيدات المعتمرات؛ فيكفيهن أن يشاهدنها من بعيد. فالرجال قوامون على النساء. والمزاحمة والدفع والضرب والسحل من شيم الرجولة.

تتساوى في ذلك كعبة الله في مكة المكرمة، مع شقة الزوجية في قاهرة المعز!

الختان ... سامحكم الله!

من عجائب الأمور في بلد مثل مصر، يدين معظم أهله بالدين الإسلامي، ألاَّ يختفي الختان مع الديناصورات والغول والعنقاء، والزوج الوفي!

فختان البنات هو تقليد تمارسه بعض الشعوب الإفريقية ولا أصل له في الإسلام؛ وهو كناية عن استئصال البظر من عضو الفتاة التناسلي. وفي أثناء العملية؛ يتم أحيانًا استئصال المشفرين الصغيرين، وقد يُقطَع قسم من المشفرين الكبيرين. ويُجري هذه العملية في المعتاد أشخاص غير مؤهلين؛ وهي عملية خطيرة يصاحبها نَزْف شديد يؤدي في بعض الحالات إلى موت الفتيات المختونات، كما يؤدي إلى التهاب في الدم. والغاية من الختان هي إلغاء المتعة الجنسية لدى المرأة؛ وهو ما يجعل العلاقة الجنسية مؤلمة في معظم الأحيان. وبعض الزوجات تتحاشاها بقدر الإمكان لشدة الألم الذي يصل بهن إلى البكاء. وقد يسبب الختان كذلك صعوبات أثناء الولادة.

وبينما الختان لا ضرورة صحية له عند الفتيات، فإن إجراءه للذكور حتمي جدًا؛ وذلك للتخلص من إفرازات بيضاء تتجمع عند قاعدة ما يسمى بالحشفة في الأعضاء التناسلية الذكورية، كما أنه مهم لإتمام العلاقة الجنسية بشكل سلس. وهي في حالة الذكور عملية بسيطة لا خطورة منها. وهي تقليد ديني لدى المسلمين واليهود، ومتبع بصورة تلقائية في بعض البلدان المسيحية؛ مثل الولايات المتحدة؛ تحت عنوان النظافة الصحية.

وللتعرف على ملابسات الختان؛ لَمن لم تمر من البنات بالتجربة

والحمد لله، ولَمن سمع عنها من الرجال، نتأمل وصف الكاتبة نوال السعداوي لقصتها الشخصية مع الختان؛ إذ كتبت تقول: "كنت في السادسة من عمري نائمة في سريري الدافئ أحلم أحلام الطفولة الوردية، حينما أحسست بتلك اليد الباردة الخشنة الكبيرة ذات الأظافر القذرة السوداء، تمتد وتمسكني، ويد أخرى مشابهة لليد السابقة خشنة وكبيرة تسد فمي، وتطبق عليه بكل قوة لتمنعني من الصراخ. وحملوني إلى الحمام، لا أدري كم كان عددهم، ولا أذكر ماذا كان شكل وجوههم، وما إذا كانوا رجالاً أو نساء؛ فقد أصبحت الدنيا أمام عيني مُغلفة بضباب أسود، ولعلهم أيضًا وضعوا فوق عيني غطاء؛ كل ما أدركته في ذلك الوقت تلك القبضة الحديدية التي أمسكت رأسي وذراعي وساقي حتى أصبحت عاجزة عن المقاومة أو الحركة، وملمس بلاط الحمام البارد تحت جسدي العاري؛ وأصوات مجهولة وهمسات يتخللها صوت اصطكاك شيء معدني؛ ذكرني باصطكاك سكين الجزار حين كان يسنُّه أمامنا قبل ذبح خروف العيد. وأرهفت أذني لصوت الاصطكاك المعدني، وما أن توقف حتى توقف قلبي بين ضلوعي، وأحسست أن هذا الشيء يقترب مني، لا يقترب من عنقي وإنما يقترب مني، من فخذي. أدركت في هذه اللحظة أن فخذيَّ قد فُتحتا عن آخرهما، وأن كل فخذ قد شُدَّت بعيدًا عن الأخرى بأصابع حديدية لا تلين. أحسست بالشيء المعدني يسقط بحدة وقوة من بين فخذيَّ، فيقطع جزءًا من جسدي. صرخت من الألم رغم الكمامة فوق فمي؛ فالألم لم يكن ألمًا؛ وإنما هي نار سرت في جسدي كله، وبركة حمراء من دمي تحوطني فوق بلاط الحمام. لم أعرف ما الذي قطعوه مني، ولم أحاول أن أسأل. كنت أبكي وأنادي

على أمي لتنقذني، وكم كانت صدمتي حين وجدتها بلحمها ودمها واقفة مع هؤلاء الغرباء، تتحدث معهم وتبتسم لهم؛ وكأنما لم يذبحوا ابنتها منذ لحظات. وحملوني إلى السرير، ورأيتهم يمسكون أختي التي كانت تصغرني بعامين بالطريقة نفسها، فصرخت، وأنا أقول لهم: لا، لا. ورأيت وجه أختي من بين أيديهم الخشنة الكبيرة. كان شاحبًا أبيض كوجوه الموتى، والتقت عيناي بعينيها في لحظة سريعة قبل أن يأخذوها إلى الحمام؛ وكأنما أدركنا معًا تلك اللحظة المأساة؛ مأساة أننا خُلقنا من ذلك الجنس، جنس الإناث الذي يحدد مصيرنا البائس ويسوقنا بيد حديدية باردة إلى حيث يستأصل من جسدنا بعض الأجزاء".

ولعل هذه التجربة المأساوية واحدة من العوامل التي شكلت تلك الحدة في أفكار ونظريات الكاتبة الشهيرة؛ وهي ما لا تحظى بتعاطُف معظم أصحاب الفطرة السليمة من الجنسين معًا!

ويبقى السؤال المُلِحُّ: هل من العدالة والإنصاف أن نقوم بختان البنت للحد من الإثارة الجنسية لها حين تنضج؛ وكأن الشرف هو ألاَّ تُثار المرأة، وألاَّ يكون لها غريزة، وألاَّ تكون بشرًا؟

إننا ننعتهنَّ بقولنا: بنات حواء ... عفوًا، إنهنَّ كذلك بنات آدم!

بكَّار .. وبَكَارة!

من المظاهر البالية لليلة الدخلة وفض غشاء البكارة - التي لم تنته بعد من كافة أنحاء الجمهورية - أن تدخل حجرة العُرْس أم العروس والداية بصحبة العروس، ثم يدخل العريس، وتبدأ الداية في تهيئة

العروس لعملية الفض، فتعاونها على خلع ملابسها، ثم تناول العريس منديلاً من الشاش الأبيض، يفض به بإصبعه بكارة العروس على مرأى من الداية ومن أمها، ثم تخرج أم العروس بالمنديل المسمى «المحرمة» إلى حيث تنتظر الجماهير الغفيرة للاطمئنان. تنظر إليهم مرفوعة الرأس، ويرتفع المنديل مع رأسها إلى أعلى؛ مثل راية خفاقة عنوانها الشرف. وتنطلق الأعيرة النارية، وتتوالى الزغاريد والأغاني من عينة: حلوة يا بلحة يا مقمَّعة شرفت عمامك الأربعة. حلوة يا نخلة يا مفرعة شرفت خلانك الأربعة. يا بلحة وأربع عنبات منقوعة وبايتة في شربات شرَّفت أبوكي وأخوك، وولاد عمك البنات! وكذلك أغنية: قولوا لأبوها يقوم بقا يتعشى. قولوا لأبوها الدم ساح وبَلّ الفَرْشة!

ويَطُلُّ السؤال الأكثر إلحاحًا: فإن كانت البنت شريفة وعفيفة، ولم تُجْرِ عملية إعادة الغشاء، ولم تستعمل الغشاء الصيني، فما دليلنا أن الرجل هو الآخر شريف وعفيف ولم تُفَضّ بكارته من قبل؟

وأستعين هنا بقصة يحكيها لنا الدكتور خليل فاضل من كتابه «الجنس .. أزواج وزوجات وأمور أخرى»، فيقول: "الرجل الشرقي ليس لديه مانع من أن يتزوج من غربية مارست الجنس معه ومع غيره قبل زواجها به. وفي أمريكا سأل رجل مصري حبيبته الأمريكية عما إذا كانت عذراء من عدمه. فأجابت: بالطبع لا أنا عندي 31 سنة، لكن تعال هنا، لماذا تسأل؟ فقال: حتى يتسنى لي اتخاذ القرار المناسب للزواج منك. ضحكت وردت في هدوء: مَن قال لك أني موافقة على الاقتران بك أصلاً، ثم هل أنت (فيرجين) عذراء يعني؟ وهو تعبير صحيح يُستخدم في الغرب للدلالة على أن الرجل لم يمر بأي تجارب جنسية مع امرأة من قبل. أطرق الرجل برأسه وقال في هدوء مُبَلَّل

بالعرق : لا أنا لست عذراء، لكن عايز أتجوزك إذا سمحت!

أما الكاتبة هالة فؤاد على موقع الأوان الإلكتروني فتقول: "السؤال الذي لم أجد عليه جوابًا حتى اليوم، لماذا يقبل الرجل الشرقي بالزواج من امرأة أوروبية غير عذراء، ويعرف أن لها تاريخها الجنسي قبله، ولا يقبل بذلك مع المرأة الشرقية؟ يقول أحدهم، هذه عاداتهم! ولكن كيف هو نفسه يقبل هنا ولا يقبل هناك؟ لم أفهم هذه النقطة حتى الآن، حتى إن بعض الرجال الشرقيين هنا في فرنسا، تتغير معاملتهم لي حين يعرفون أني لست فرنسية، ويحاولون فرض الثقافة الشرقية عليَّ في التعامل مع المرأة، باعتبارها أقل، وقابلة للمساومة؛ كما لو أنها أقل من المرأة الأوروبية في الدفاع عن حقوقها، أو أنها أرخص؛ بل وكأنه يستعيد حماية الشرق له، وتعاطفه معه، في حال أي خلاف؛ فالمرجعية الشرقية، ستنتصر له".

عزيزي الرجل الشرقي! إن كنت تفتش عن بكارة فتاتك، فاسمح لها بالسؤال عن بكارتك. وإن كنت تبحث عن بنت عذراء، فلا تحرمها من الأمل في رجل عذراء.

مش عاجباك عذراء دي؟!

بلاش ... فلتكن هي لك الفتاة العذراء، ولتكن أنت لها الرجل الأعذر!

رمرمة!

يقول استطلاع رأي نشره المركز المصري لحقوق المرأة في عام 2008، أن 83 % من نساء مصر تعرضن للمعاكسات بكافة أنواعها.

وتتعرض 72.5 % من المحجبات للتحرش الجنسي. أما الأجنبيات، فتتعرض 98 % منهن إلى التحرش ... ومن واقع الأرقام، يتضح لنا أن الرجل المصري ذوق وذوَّاقة. ويشتهي كل النساء إلا زوجته!

ويقول شريف الشوباشي في كتابه «ثورة المرأة»، وهو كتاب مهم: "الرجل العربي يتمنى أن يرى كل نساء أسرته محجبات أو منقبات لا يراهن أحد، لكنه يحلم بأن يرى باقي نساء العالم عاريات. يريد أن تظل نساء أسرته بمنأى عن أعين الرجال ولا يستريح إلا عندما يقرن في منازلهن، لكنه يريد لباقي النساء الخروج والتبرُّج والتواجد في الشارع حتى يستمتع بالنظر إليهن. يستشيط غضبًا إذا تحدثت زوجته أو شقيقته مع رجل غريب، لكنه يجد من الطبيعي أن يتجاذب أطراف الحديث مع كل النساء".

فمن المفارقات الجديرة بالاهتمام، أن يرهن الرجل العربي شرفه بشرف جميع نسوة العائلة. فإن انحرف سلوك إحداهن، فقد دُنِّس شرفه وتمرمغ في الطين، بينما لا يمكن أن يظن في نفسه ذلك إن مارس هو الجنس مع جميع مومسات الكرة الأرضية!

ولا يُفَرِّق رجلنا المذكور بين المصطلحين الإنجليزيين ممارسة الحب making love في مقابل ممارسة الجنس having sex .

وفي كتاب الأغاني للأصفهاني، وردت قصة للشاعر الأعمى المشهور بشار بن برد؛ على النحو التالي: ذهب بشار في يوم إلى بيت سيئ السمعة وطلب امرأة يطارحها الفراش. وكانت زوجته قد علمت بنواياه، فسبقته إلى هناك، وأعطت مالاً للقوَّاد حتى يُدخلها عليه في غرفة؛ على أساس أنها هي الفتاة المطلوبة. ويبدو أن بشار قد استمتع كثيرًا، وأبدى ذلك للمرأة، لكنه بعد انتهاء العملية، فاجأته الزوجة

بالكشف عن هويتها، فصاح بشار في زوجته قائلاً: ما أحلاك في الحرام، وما أبغضك في الحلال!

فمن أصول الرمرمة والطفاسة أن نشتهي روائح طبيخ الجيران، ولو أكلوا المِش بدوده، والبيض بقشره، والحمام بريشه!

ونصل إلى شيخنا الجليل محمد الغزالي؛ إذ يقول في كتابه «قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»: "بدا لي في أحد الأيام أن أتعرف كيف يقضي الناس أوقاتهم في المساء. فأمسكت إحدى الصحف وطالعت أسماء الأفلام التي يقضي معها الناس أمسياتهم، وغلبتني الدهشة والحيرة وأنا أطالع هذه العناوين المُعلن عنها في مساء يوم واحد: لهيب الشيطان، السفلة المحترفون، ثورة كنج كونج! ولما كنت لا أعرف قائد ثورة اسمه كنج كونج، فقد سألت أحد الناس عنه، فقال لي: هو قرد هائل يهشم ما يقع تحت يده! وتابعت قراءة الأسماء: الرجل المدمر، ميراث الغضب، رجل في عيون امرأة، عزبة الصفيح، قسوة الانتقام، قاهر التماسيح، النجا الجبار، ولا أعرف هذا النجا! الهجوم الدامي، القتلة الطائرون، معركة التنين الجبار، سيف الشيطان، بنات من نار، المنتقم بقبضته. هذه الروايات كلها تُعْرَض في مساء أسود؛ ولو كان مُضاءً بالكهرباء. مساء واحد يضم هذا الفكر الخسيس كله، ويتدبره النظارة المسوقون بسياط الدعاية وسماسرة الغزو الثقافي، يقضون معه الساعات الطوال، ويترك في النفوس أسوأ الآثار. هل يخرج أحدنا بانطباع عالٍ؟ أو بطموح كريم؟ هل هذه العروض تُعين على تربية سليمة أو تدعم خلقًا زاكيًا؟ إن الجيل الذي يخرج من هذه الدور لا يخرج فارغ العقل والقلب فحسب، ولكنه يخرج مليئًا بالصغائر والكبائر على سواء".

كان الغزالي ينتقد حال السينما التي تتَّبع طقسًا مهمًّا من طقوس الرمرمة؛ وهو تسمية الأفلام بأسماء تشد الغرائز، وتوقظ المشاعر العدائية وتهيِّج كافة بواعث الشر والعنف والشهوات الحيوانية.

ولا زلت أذكر ما كان يعمد إليه مهرجان القاهرة السينمائي في صباي في مطلع التسعينيات. فكانت إدارة المهرجان صاحب الشعبية الضعيفة بين جمهور السينما تلجأ إلى حيلة غاية في اللؤم، فتستغل أن الرقابة لا يجوز لها أن تحذف مشهدًا عاريًا واحدًا من أي فيلم في المهرجان؛ تطبيقًا لبروتوكولات مهرجانات السينما في جميع أنحاء العالم. لذا؛ كان القائمون على اختيار الأفلام، يعمدون إلى اختيار أفلام أقرب ما تكون إلى الإباحية. ولم يكن يفرق مع الإدارة ولا مع الجمهور جنسية الفيلم؛ المهم جنسية المناظر! ولذلك؛ كان من المشاهد المألوفة أن نرى تهافُت الجماهير الواعية على أفلام نرويجية وتشيكية وأيسلندية غير مترجمة ... ويعلم الله أن عدد متقني تلك اللغات الثلاث في مصر لا يمكن أن يملأ صالة سينما واحدة!

زواج .. وطلاق .. وما بينهما!

العصمة في يد زوجتي. يا شماتة أبلة ظاظا فيَّا!

العصمة في يد زوجتي. ليه، متجوِّزة خرونج؟

العصمة في يد زوجتي. إخص على شنبك!

فما أتعس الذين يستقون معلوماتهم من أفلام زمن فات ومسلسلات النايل سات!

يا عباد الله! أنا الموقع أدناه قد وافقت على أن تكون العصمة في

يد زوجتي. ولأنني لست إسماعيل ياسين أو حسن فايق، ولأن زوجتي ليست ميمي شكيب أو أختها زوزو، فإن العصمة - كما جاءت في تعاليم الإسلام - هي إتاحة الفرصة للزوجة أن تطلِّق نفسها بنفسها مع عدم حرمان الزوج من ذلك الحق نفسه. العصمة في يد الزوجة أداة تحفظ للمرأة وسيلة الظفر بحريتها إن استحالت المعيشة مع الرجل دون أن يبيع ويشتري فيها، ويشرِّدها في المحاكم أو يجبرها على اللجوء إلى الخلع والتنازل عن كل شيء.

فهل منكم مَن يجد في نفسه الثقة الكافية والرجولة الوافية والحكمة الشافية؛ كي يسمح لزوجته بالانفصال عنه في هدوء، إذا ما تعسَّرت العشرة؟

في الإسلام السوي تجد كل ما نفتقده اليوم.

فتجد الخليفة عمر بن الخطاب يَعسُّ ليلاً [41]، فسمع صوت امرأة غاب زوجها في سفر الجهاد، تعبِّر عن أشواقها إلى أحضان زوجها ورغبتها الأنثوية المشروعة، وتنشد في ذلك شعرًا وصل إلى أسماعه في ظلمات الليل. عندما سمع عمر ذلك، لم يحكم عليها بالفسق والفجور، وإنما أدرك وجوب تنظيم العلاقات الزوجية، وألاَّ يطغى الجهاد في سبيل الله على استقرار زيجات المسلمين. فذهب إلى ابنته حفصة، فسألها: يا بنية، كم تصبر المرأة على زوجها؟ قالت: سبحان الله، مثلك يسأل مثلي عن هذا؟ قال: لولا أن أريد النظر للمسلمين ما سألتك.

(41) أيام كان الحكام يتجسسون بأدب على محكوميهم خدمة لهم وسهرًا على راحتهم، لا رغبة في تصيد أخطائهم والزج بهم إلى السجون !

قالت: خمسة أشهر، ستة أشهر. فوقَّت عمر للناس مغازيهم ستة أشهر، يسافرون شهرًا، ويقيمون في الميدان أربعة أشهر، ويعودون في شهر.

كان الخليفة في صدر الإسلام مسئولاً مسئولية كاملة عن رعيته، من مأكل ومشرب وملبس و... مشاعر!

وتجد امرأة مسلمة لا تفتقر إلى الحياء، تختار رجلاً صالحًا وتعرض عليه الزواج! فعن سهل بن سعد: "أن امرأة جاءت رسول الله، فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي. فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست"[42].

ومثلما ذكرنا موقف رفضت فيه امرأة عرض الزواج من النبي، نذكر هنا موقفًا آخر يرفض فيه النبي عرض زواج! كانوا بشرًا يعيشون الحياة ببساطة، بلا عُقَد أو عوائق اجتماعية سخيفة. ويذكر لنا عبد الحليم أبو شقة في موسوعته موقفًا مر بأحد أصدقائه من الجزائر الشقيق، فيروي له أنه عند زيارته لموريتانيا تقدمت امرأة إليه عارضة عليه الزواج بها، فلما رأت دهشته قالت: هل أدعوك إلى الحرام؟ إنما أدعوك للزواج على سنة الله ورسوله، فنذهب إلى القاضي ويتم العقد بحضور شاهدي عدل!

علامة التعجب التي أنهيت بها ذكر الواقعة أكبر دليل على تنافر قشور التقاليد مع جوهر العقيدة!

وتجد أرملة مسلمة تتزوج مرة بعد الأخرى دون أن تعاني من مُركَّب النقص الذكوري بأن تكون زوجته فرزًا أول لم يمسسها بشر! فيروي لنا التاريخ أن عاتكة بنت زيد، وكانت صحابية أديبة ذات جمال وكمال ورأي، قُتل زوجها عبد الله بن أبي بكر، فتزوجها من بعده عمر بن الخطاب، فلما

(42) رواه البخاري ومسلم

قُتل عمر تزوجها الزبير بن العوام، فلما قُتل الزبير في الفتنة الكبرى، تزوجها الحسين بن علي، فلما قُتل بكربلاء، كانت أول مَن رفع خدَّه عن التراب، ثم ترمَّلت من بعده، ولم يَسْعَ إليها أحد! ومن الطرائف أن عبد الله بن عمر كان يقول: من أراد الاستشهاد، فليتزوج عاتكة!

واليوم لا تجد البكر الرشيد ذات الخلق والجمال والحسب والنسب من تتزوجه في عصر مالت فيه الكفة واختل فيها الميزان، فصار رجال العصر أشبه بالصبية الذين يذهبون إلى المولات التجارية الراقية للاستمتاع بالتكييف هربًا من لهيب الصيف دون إنفاق مليم واحد. فإن كان هذا هو حال العذراء الشابة، فما بالنا بالأرملة والمطلقة!

ومن غرائب المجتمع المصري؛ أن يطلق الرجل زوجته، فيلقي بها إلى الشارع؛ علمًا بأن الطلاق لا يحْرم المرأة من نفقتها طوال مدة العدة، ولا يبيح للزوج إخراجها من بيت الزوجية، بل ويفرض عليه أن تبقى في بيتها قريبة منه، لعل الحنين يتجدَّد والقلوب تصفو، فيقول تعالى: ﴿ لا تَدْري لَعَلَّ اللَّه يُحْدثُ بَعْدَ ذَلكَ أَمْرًا ﴾[43].

واللافت للنظر أن يحمل الطلاق اسم سورة كاملة في القرآن الكريم، لأن الطلاق - على إباحته - فيه كثير من الأذى للمرأة، وكان ينبغي إيضاح كل أحكامه التي لا يعمل بها أحد! فالآية الثانية من سورة الطلاق أمرت بإشهاد شاهدين، ولم تحدد نوع الطلاق. لذا يذهب بعض الفقهاء إلى ضرورة توافر الشهود والأوراق الرسمية على كل أنواع الطلاق؛ رجعيًا كان أو بائنًا؛ حتى يقطع الطريق على تلاعب الرجال في أقدار نسائهم.

(43) ومن عجائبه كذلك؛ أنه في الوقت الذي ارتفع فيه معدل الطلاق عالميًا ثلاث مرات خلال خمسين سنة، تضاعفت النسبة في مصر سبع مرات في الفترة نفسها !!

فكثيرًا ما حدثت حالات ابتزاز من زوج لزوجته، فيأتي المحترم بعد أن طلقها طلاقًا رجعيًا، وبعد أن ترتبط هي بغيره وتنجب، فيدَّعي أنه أعادها لعصمته بينه وبين نفسه وبالقانون! وفي حالات أخرى تموت الزوجة المطلقة الثرية، فيظهر طليقها ويؤكد أنه أعادها في فترة العدة، ويطالب بميراثه! وقد أدى شيوع مثل هذا الاحتيال إلى وضع مشروع بقانون لمجلس الشعب أيده فضيلة المفتي يوجب توثيق الزوج لمراجعته قبل انقضاء ستين يومًا من تاريخ الطلاق، وإخطار الزوجة بذلك خلال 15 يومًا من تاريخ التوثيق. ولكن متى سمعنا عن أحكام تُنَفَّذ في بلدنا؟

ومن ملاحظات شيخنا الغزالي أن تأتي آيتان من سورة البقرة وقد تكررت فيهما كلمة حدود الله ست مرات متتالية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَان فَإمْسَاكٌ بمَعْرُوف أَوْ تَسْريحٌ بإحْسَان وَلاَ يَحلُّ لَكُمْ أن تَأْخُذُواْ ممَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقيمَا حُدُودَ اللَّه فَإنْ خفْتُمْ أَلاَّ يُقيمَا حُدُودَ اللَّه فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهمَا فيمَا افْتَدَتْ به تلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ . فَإن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحلُّ لَهُ من بَعْدُ حَتَّىَ تَنكحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهمَا أَن يَتَرَاجَعَا إن ظَنَّا أَن يُقيمَا حُدُودَ اللَّه وَتلْكَ حُدُودُ اللَّه يُبَيِّنُهَا لقَوْم يَعْلَمُونَ﴾.

سبحان الله العظيم! إن الآيات تكرر المعاني؛ وكأنها تخاطب نائمين في سبات عميق. نام أهل الكهف ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعًا. ونام رجال الشرق بعد أربعة عشر قرنًا وازدادوا فُجْرًا!

ونختم هذا الفصل بحكايتين من كتاب «أُفَكِّر في الطلاق» للكاتبة نجلاء محفوظ. والحق أن السيدة نجلاء حاولت - على امتداد صفحات الكتاب العامرة بشكاوى زوجات من أزواجهن- أن تهدئ من روع الشاكيات، وتقدم لهن النصح والإرشاد، بل وتعاتبهن أحيانًا على ما تحتويه رسائلهن، لكنني لاحظت أن المؤلفة تلتمس الأعذار دومًا لجميع الأزواج، ولسان حالها يقول احمدي ربنا منك ليها أن لك زوجًا يلمِّك. وقد يكون ذلك نابعًا من حرصها على استقرار البيوت والحيلولة دون وقوع الطلاق وتشريد الأطفال وبهدلة الزوجة.

وأتوقف أمام شكوى زوجتين. الأولى: ملخصها أن زوجها يخونها مع فتاة تصغرها؛ استغلالاً لتعرُّضها لحادث أليم أقعدها الفراش سبعين يومًا؛ فأصبح يمارس علاقة محرمة مع غيرها، ولم يردعه اكتشافها سره، بل أصبح يعايرها بكبر سنها وعدم نفعها في شيء!

انتظرت أنا أن تطالب الكاتبة بموقف صارم من الزوجة ومن أهلها حيال الزوج المنفلت؛ ولا مانع من بعض الحكم المأثورة المفيدة في ضرورة الصبر والتسامح، لكنها بدلاً من ذلك ردَّت على شكواها تقول: "من الجميل أنك تزوجت عن حب، ومن الأجمل أن تفتشي بداخلك عن الأسباب التي أحبك زوجك بسببها، واختارك وفضلَّك على كل البنات"!

أفلا تذكِّركم هذه العبارة باصطفاء الله جل شأنه للسيدة مريم وتفضيلها على العالمين؟

لم أصدق عيناي وأنا أقرأ مناشدة الكاتبة للمرأة المغدور بها أن تذكر لزوجها أنه اصطفاها واختارها من بين نساء العالمين. إذن؛ هي معاملة سيد لعبد، خالق لمخلوق، زعيم لرعية!

وفي رسالة أخرى، تشكو زوجة مُرَّ الشكوى من سوء معاملة أهل زوجها لها بعد أن سافر زوجها بعد الدُّخلة بشهرين للعمل بالخارج. وتستفيض في شكواها مؤكدة أن زوجها مقيم في البلد نفسه الذي تقيم به زوجة أخيه العربية مع أهلها، بينما ينتقل أخوه بين القاهرة وهذه المدينة العربية، وأن زوجها كثيرًا ما يذهب إليها في بيت أسرتها ويهتم بمشكلاتها تنفيذًا لأوامر أمه التي لا تحب صاحبة الشكوى، ثم تقول بالحرف الواحد في نهاية رسالتها: "أشعر بالاختناق الشديد ولا أعرف كيف أتصرف مع زوجة أخيه الأكبر؛ فدائمًا تعاندني ثم تشكو مني لزوجي، وتقرِّبه منها وتُشْعره بأنها مظلومة؛ حتى إنها تشكو لزوجي من زوجها، ويتعاطف معها ضد أخيه"!

وبعد أن تحاول الكاتبة أن تهوِّن على الشاكية أمرها مُطالبة إياها بالصبر، تبدأ في تقديم النصح قائلة: "ولماذا لا تفخرين بأن زوجك محبوب من أهله ويحبهم، وأذكرك بالمثل الرائع "اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد"، وصدِّقيني كنت سأقلق عليك لو باع زوجك أهله من أجلك، ففي هذه الحالة سيسهل عليه التخلي عنك من أجل امرأة أخرى. وقد استغربت لغيرتك من زوجة أخيه التي يزورها ويهتم بمشكلاتها في غياب أخيه، فإن لم يفعل ذلك، فهل سيترك الغرباء يساعدونها ويكتفي هو بالمشاهدة من بعيد؟!"

أجل؛ علامة التعجب وضعتها المؤلفة مُبدية اندهاشها الشديد من سوء نوايا الزوجة الظالمة، وفعلاً "اللي ما مالوش خير في حاتم، مالوش خير في مصر"!

لكن الجديد هنا - في هذه الرسالة - هو النصيحة الأخيرة التي قدمتها الكاتبة الحريصة إلى أبعد مدى على عدم خراب البيوت؛

حتى لو انهارت فوق رؤوس النساء، فتختتم ردها بقولها: "استفيدي من فرصة غياب زوجك؛ بأخذ دورات في اللغة أو في الكمبيوتر، أو في التنمية البشرية"!

يا سلام يا ولاد! يعبث الرجل مع زوجة أخيه في الغُربة في وضع شاذ غير مقبول؛ على أن تستهلك الزوجة الوقت في تعلُّم اللغة الفرنسية!

فِـــرْكِـــش !!

شارع الحب!

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: لأ بلاش. افرضي حد من قرايبك شافنا؟ ولاً حد من أصحاب أخوكي في الكلية بلّغوه. إن شاء الله يا حبيبتي بكرة نتخطب وأمسك إيديكي قدام الدنيا كلها.

وبعد الخطوبة:

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: علشان مش عاوز حد يفتكر إننا علشان اتخطبنا هنصيع بقا ونعيش حياتنا. وبعدين بصراحة كده أنا مستحرم. إن شاء الله بكره نتجوز وأمسك إيدك وانتي مراتي حبيبتي في الحلال.

وبعد الزواج:

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: يا حبيبتي إحنا مش مراهقين عشان نمسك إيد بعض في الشارع وكده. إحنا اتنين متجوزين ومحترمين ولينا بيت نعمل فيه اللي إحنا عاوزين نعمله.

وبعد إنجاب الأطفال:

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: يعني أمسك إيدك ولاَّ إيد البنت ولاَّ الأكياس دي كلها؟

وبعد مرور 25 سنة زواج:

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: إيدك إيه بس اللي هامسكها دلوقتي، انتي عاوزه جوز بنتك يقول علينا كبرنا وخرَّفنا.

وبعد مرور 50 سنة زواج:

هي: انت ليه مش بتمسك إيدي وإحنا ماشيين في الشارع؟

هو: يعني أمسك إيدك وأسيب العكاز عشان أقع. مانا عارفك عايزة تخلصي مني عشان تورثي!

وقد اتضح أن العيب ليس في يدها ولا في يده. وإنما ... في الشارع!

عدالة عوراء!

سيدة شابة مقيمة بالقاهرة مع أمها؛ تزوجت منذ خمس سنوات، وأنجبت طفلاً عمره الآن أربع سنوات. قام زوجها بطردها من منزل الزوجية على خلفية نزاعات قائمة منذ بدء العلاقة. فلم تر وليدها منذ عام كامل. وقد استخدمه زوجها كسلاح ابتزاز حتى تتنازل عن كل حقوقها الشرعية، وحقها في منزل الزوجية والحضانة؛ مقابل أن تحظى بالطلاق. ورغم حصولها على قرار ضم الطفل؛ فإنها لم تُمَكَّن من ضم طفلها، وما زال الزوج طليقًا. وما زال الطفل غائبًا في دهاليز العاصمة.

وسيدة أخرى مقيمة بالإسماعيلية وتعول طفلة مريضة عمرها خمس سنوات، بينما يقيم زوجها بالبحر الأحمر. وقد حصلت على

حُكْم نفقة؛ تنتقل بموجبه من الإسماعيلية إلى البحر الأحمر متحمِّلة 80 جنيهًا كمصاريف انتقال في كل مرة. ولم تتمكن حتى الآن من الحصول على نفقتها؛ فضلاً عن مقابلة الزوج أساسًا! تراكمت عليها الديون والأعباء المالية مع غياب أي مصدر دخل آخر لها. ولم يعبأ زوجها باحتياجات طفلته من علاج وملبس ومأكل، ولا بصيانة عفة زوجته التي لو أخطأت في حق نفسها تحت قهر الحاجة ما غفر زوجها والمجتمع لها، مع أن الزوج والمجتمع أغلقا كل الأبواب في وجهها؛ إلا بابًا واحدًا.

وثالثة تقدمت بطلب تنفيذ حُكم تبديد ضد زوجها الذي كان يعمل غواصًا، ثم أدمن الهيروين مما أفقده وظيفته، فساءت أوضاعه المادية، ودبَّت الخلافات بينهما بسبب نصحها له بالإقلاع عن الإدمان، فتعرضت للضرب والإهانة وكذلك الاعتداء على طفلها. وأخيرًا قرر أن يطلقها دون نفقة، بل وقام بتبديد عفش الزوجية، ثم حصلت على حُكم التبديد، ولم تجد مَن ينفذ لها الحُكم. تذهب يوميًّا إلى الجهة المختصة بالتنفيذ، فينظر لها الجميع باستغراب؛ كأنها تطالبهم بتمكينها من التاج البريطاني!

ورابعة تزوجت من رجل، فرُزقت منه بنتين وغلامًا، ثم طلقها ثلاثًا بعد معاملة ولا أسوأ. فمكثت في بيت والدتها عامين، طالبت زوجها خلالهما أمام القضاء بنفقتها وأولادها منه. فحكمت لها المحكمة، ولم يدفع لها الزوج قرشًا واحدًا لمدة أربع سنين من وقت الحكم، ثم تزوجت بغيره، وصارت حضانة أولادها لأمها، وظلت على ذمة الزوج الجديد لمدة عام، ثم مات. ولما علم زوجها الأول أنها بصدد معاودة مطالبته بحقوقها السابقة أمام القضاء؛ ارتأى أن يحتال عليها بزعم استعادة

حبهما القديم، حتى أعادها إلى عصمته؛ ظنًّا منه بسقوط مستحقاتها بزواجهما. وسرعان ما فارقها من جديد بعد أسبوع واحد، تاركًا إياها تجري وراء حقوق قديمة وأخرى جديدة... ويدِّيها طولة العمر!

السيدات الأربع - وغيرهن مئات الآلوف - يعانين جميعًا من قهر الأزواج، لكن القهر إن صاحبه أمل في نيل الحقوق بالتقاضي؛ فإنه يبقى في دائرة التحمُّل. أما قهر متلازم مع عدالة عوراء، تحكم لها بأحقيتها فيما تطالب به؛ دون قدرة على تسليمها ذلك الحق، فهذا هو الذل بعينه.

فالمطلقة في بلدنا مثل أسير ظمآن مقيد بالحبال، وينعم عليه سجَّانه بكوب من الماء، لكنه يضعه على مرمى البصر، فلا الكوب يغيب عن نظره، ولا الماء تطوله يداه!

من غُلْبَها !

استأجرت تشين وي بيه قاعة أفراح صغيرة تكفي ثلاثين من الأصدقاء .. تعاقدت مع منظم حفلات زفاف شهير .. اشترت فستانًا أبيض فضفاضًا غالي الثمن .. اتفقت مع مصور محترف لتخليد ذكرى المناسبة السعيدة ... بلغت إجمالي تكاليف الحفل نحو ستة آلاف دولار ... عملت تشين حسابًا لكل التفاصيل الصغيرة ... حتى إنها قامت بالحجز مبكرًا للسفر في رحلة شهر العسل إلى قارة أستراليا الدافئة في مثل هذا التوقيت من نهاية العام. فهي قد تخطت الثلاثين من عمرها، وها قد حان الوقت لبدء حياة زوجية سعيدة ومستقرة!

هل نسيت العروس التايوانية الحسناء شيئًا؟

فقط موضوع هامشي جدًّا. فكل شيء والحمد لله متوفر إلا..!

على العموم .. ألف مبروك يا تشين. والله لن تجدي إنسانًا يقدرُّك ويحبك أكثر من ذلك ... ونعم الاختيار!

عقبال عندكم .. لقد تزوجت تشين وي بيه ... من نفسها![44]

آنيتا وابنتها !

حيث تعيش هي في ألمانيا؛ لا يفكر الناس كثيرًا في الزواج، لكنها لم تكن كذلك. ليس لأنها تُقدِّس الزواج، ولكن لرغبتها الشديدة في إنجاب طفل يملأ عليها مستقبل أيامها.

مرت السنون، وصادقت رجلاً واثنين وثلاثة. وتنتهي العلاقة في كل مرة قبل أن تتطور إلى زواج، والأهم من ذلك قبل أن تحمل بطفل. كبرت آنيتا، وشارفت على الأربعين، وصار الأمل يتقلص في العثور على زوج؛ فضلاً عن الظفر بطفل منه.

فتشت في دفاترها القديمة، واختارت صديقًا سابقًا، لم يترك انفصالهما ضغينة كبرى في النفوس. وعاودت الاتصال به، وقابلته. واتفقت معه على الذهاب إلى بنك الحيوانات المنوية التابع للمستشفى القريب؛ على أن يقوم بإيداع حيواناته لديهم مقابل مبلغ من المال تدفعه هي له؛ لتقوم المستشفى بعد ذلك بإجراء تلقيح صناعي بالحقن الموضعي؛ فتتسلل حيواناته إلى داخل رحمها؛ على أن تنتهي علاقته بها عند ذلك الحد، فالطفل يُسمَّى باسم أبيها، وكأنه أخوها!

نجحت المحاولة ...

(44) وفي اليونان، البنت اليونانية ناصحة وجابت من الآخر .. هناك البنت هي التي تتقدم لخطبة الشاب، وهي المتكفلة بكل مصاريف المهر والزواج وتنقي العريس براحتها !!

آنيتا الآن في منتصف الأربعينيات، تعيش مع ابنتها مارتينا. ولم تعد تبحث عن زوج.

لكن مارتينا تبحث عن ... أب!

يستاهل!

أمرت محكمة إيرانية أحد المواطنين بشراء 124 ألف وردة لزوجته التي تقدمت بشكوى أمام القضاء بسبب بخله؛ مطالبة إياه بدفع مهرها المتفق عليه في عقد الزواج. وكانت السيدة هنجامه قد رفعت دعوى ضد زوجها شاهين مطالبة بمهرها المسجل وقدره 124 ألف وردة؛ وذلك بعد أن فاض بها الكيل من بخله الشديد طيلة عشر سنوات زواج. وكشفت هنجامه أن تقتير زوجها وصل إلى درجة رفضه أن يدفع ثمن القهوة حال ذهابهما إلى المقهى.

رَدَّ الزوج على هذه الدعوى باتهام صديقة الزوجة بأنها هي من زرعت فكرة الانتقام في رأس زوجته، وطالب بالرأفة لعدم قدرته على شراء أكثر من خمس وردات في اليوم الواحد. رفضت المحكمة تبرير الزوج وأمرت بمصادرة شقته، حتى يلتزم بشراء الورود قيمة المهر المستحق لزوجته.

يا شاهين ... يا راجل يا طيب. أنت في بيت رومانسي يستحق منك بذل بعض المشاعر وقليل من المال. ادفع بالتي هي أحسن. ففي بلاد أخرى، يقدم الأزواج مهورًا عجيبة. ادفع وإلا أرسلناك إلى جزيرة جاوة الإندونيسية؛ حيث يلتزم الرجل بتقديم 25 ذنب فأر لاستصدار رخصة الزواج؛ وذلك مكافحة من الدولة للفئران التي أصبحت خطرًا

يهدد محصول الأرز.

ذيل فأر ... أم غصن زهرة؟

مش من مستوايا !

مقابلة صالونية معتادة ...

جاءها عن طريق إحدى صديقات الأم. قابلها في النادي مع أهلها، وكان ينظر في ساعته كل خمس دقائق. وقبل أن تمر ساعة، وقف فجأة، ثم استأذن لأنه مشغول. وفي طريق خروجه من النادي دفع الحساب على عجل. توقعت الفتاة أنه غير مهتم بها، وأنها لم تحز على إعجابه. لكن مكالمة تليفونية جاءت عن طريق الواسطة بعد أسبوع؛ لتؤكد أنها ... مش بطالة!

تقابلا من جديد، وحدهما هذه المرة. وكان يقطع حديثها بإجراء مكالمات عمل فاقت مدة جلوسهما معًا. استمر التعارف في مساره التقليدي. ورغم أنه أخذ رقم هاتفها؛ لم يكلمها قط؛ فهو إنسان مهم ومشغول وعصبي وحمَقي ولا وقت لديه للمشاعر والكلام الفارغ.

تحملته على مضض؛ أملاً في أن يتغير هو أو أن تعتاده هي!

وبعد شهرين؛ جاءت مكالمة قصيرة من صديقة أمها، تعتذر عن المضي في إجراءات الخطوبة، فقد نقل إليها العريس تحفظه الوحيد قائلاً: "العروسة مش من مستوايا. أنا قصيَّر. وهي طويلة. شوفي لي واحدة مقاسي"!

أنزوح أفندي!

مُقلِّبًا في فاكهة المحل؛ مُبديًا امتعاضه من الجودة ومن السعر ومن القفص؛ ذاهبًا بنظره إلى قفص جديد ونوع آخر من الفواكه.

فهو المشتري، وهو الزبون ... والزبون دائمًا على حق!

لذا تجد الأمثال الشعبية تحييه وتؤازره وتبارك خطواته. وتجد المجتمع يغالي في مكانته وقيمته، وروعة ما يقدمه للغير.

اللي يقول لمراته يا هانم، يقابلوها عالسلالم. حُرْمة من غير راجل زي الطربوش من غير زر. عيش يا حبيبي ولا تبكِّيني، حسَّك في الدنيا يكفِّيني. آخُد الغندور، ولو سكِّني وسط القبور.

وللزبون ذوقه الخاص وخياراته المفضلة؛ فلا يعجبه من المعروض إلاَّ الأحلى والأبهى.

لذا تجد المعروضات يرثين لحالهن إن لم تكُنَّ مطابقات للمواصفات.

يا ريتني بيضا وليّا ضب، ده البياض عند الرجَّالة ينحب. يا ريتني بيضا وليّا عرقوب، ده البياض عند الرجَّالة محبوب. ما يعجبكش طولها الزين، ولا لفتها في الملاية، مناخيرها قد الدوايا، خلِّت فطوري عشايا. يا واخد السود يا مقضِّي الزمان حزين، ضيَّعت مالك في خُنْفُس وجالوص طين.

وهذه هي آخرة قلة التربية. فأنزوح أفندي له أب سبقه إلى الأنزحة، وله أم تبصق على نفسها يوميًّا في المرآة، وله أخت لا تخلو من عيوب الصناعة!

يعني إيه لاتيه!

كانت هي دون العشرين، غير عابئة بمفهوم المقابلات الصالونية

للارتباط. وفي يوم أصرت صديقتها على دعوتها للذهاب معها في خروجة بنادي الصيد.

وهناك، كانت صديقتها المخطوبة منذ نعومة أظافرها، قد رتبت لقاء بأحد أصدقاء خطيبها.

جاء الجرسون لتلقي الطلبات، فطلب الصديق لاتيه. وهنا مالت هي على صديقتها وسألتها بصوت خافت: هو إيه اللاتيه ده؟ كان سؤالاً فضوليًّا عابرًا لا مُباليًا، لكن الشاب سمع السؤال، وتغيَّرت ملامح وجهه، ولم يلبث أن انتفض، ووجَّه إليها الكلام بحدَّة غير مفهومة: نعم يا ماما، مش عارفة يعني إيه لاتيه؟ .. ثم استأذن وانصرف!

بعد إذنكم .. أرجو ألا يفكر أحدكم في الاستئذان والانصراف قبيل نهاية الكتاب ... فأنا الآخر لا أعرف ... يعني إيه لاتيه!

إسكندرية رايح جاي!

رغم أنها تعيش بالإسكندرية؛ إلا أن معظم معارف أهلها يسكنون العاصمة؛ قبل أن ينتقل الوالد وبصحبته الأسرة إلى الإسكندرية لطبيعة عمله.

وذات صباح؛ رن جرس التليفون؛ حاملاً بشرى من القاهرة. فقد عاد وليد من دبي في أعقاب أزمة دبي المالية.

استقر وليد بمصر، وتبحث له أمه عن عروس. ولم تجد الأم أفضل من نهلة ابنة جارة بنت خالتها؛ إذ شاهدتها في زيارة أخيرة لنهلة إلى بيتها القاهري بمصر الجديدة.

ولأن ظروف الأسرتين لن تسمح بانتقال أيهما إلى مدينة الآخر

للقاء والتعارف؛ فقد اتفقا على اللقاء في الريست هاوس في منتصف طريق مصر الإسكندرية الصحراوي!

ورغم استياء نهلة من فكرة أن تقطع ما يزيد على مئة كيلومتر لتقابل عريسًا؛ قد يصلح أو لا يصلح؛ إلا أنها وتحت إلحاح من والدتها رضخت للفكرة.

وعند الوصول للريست؛ كانت المفاجأة المدوية!

فقد حضرت أم وليد وأخت وليد وبنت خالة أم وليد ... وغاب وليد!

فين وليد؟ أصله متردد. فاقترح أن تراها الأسرة أولاً، وإن لمس في رأيهم ما يشجعه، يبقى يقابلها مرة ثانية!

وابقى قابلني يا وليد!

ده كلام؟!

ساعات ...

لا يفتح الله على العرسان عندما يلتقون بالعرايس في مقابلات الصالونات.

فهم يحاولون مشكورين التعريف بأنفسهم، لكنهم يبدون مرتبكين وحائرين. ما الذي يجب أن يُقال وما الذي لا ينبغي أن يذكروه.

واحدٌ من هؤلاء، استقر رأيه على البدء في سرد تاريخه مع العمليات الجراحية؛ بدءًا بعملية الفتق التي أجراها والسلك الذي يعيش به في بطنه لسد الفراغ الناشئ عن التليُّف المستأصل مع العملية، مرورًا بعملية تفتيت الحصاوي في الكلى وما سبقها من مشاكل حادة في

التبول، وانتهاءً بحالته العصبية التي ينتج عنها ظهور قُرَح في فمه كلما تعصَّب أو توتَّر، ثم قال لها في استعطاف: "حتى بُصِّي"! ... وقام فاتح بُقُّه؛ في حركة انقضاض مفاجئة على العروس المسكينة، التي أصيبت بالقيء الحاد بعد ربع ساعة من الاستماع المتواصل ... ونقلوها على البيت!

الله لا يكسبك يا بعيد!

وانقفلت ... السكة!

كان أقل منها في كل شيء.

وكان صبرها عليه مثار دهشة الجميع.

وكان - مقارنةً بشباب العائلة - أغبى الأغبياء، وأجهل الجهلاء، وأفقر الفقراء.

وكانت هي - بالنسبة له - أميرة الأمراء .. وبئرًا في الصحراء!

كان كسولاً؛ لا يريد تعلُّم ما ينفعه لتطوير مستقبله.

وكان كذوبًا؛ يقُصُّ أوهامًا بشأن مصنع أبيه الذي يديره، ولا كان هناك مصنع، ولا كان هناك أب!

وكان سافلاً؛ يحاول تجاوز الخطوط الحمراء، وتَصُدُّه بلُطف كي لا يغضب أو تنجرح أحاسيسه!

وكان بخيلاً؛ تهديه عطرًا رجاليًّا فاخرًا، فيهديها وردة ذابلة بلا رائحة!

وكان عنيفًا؛ يثور لأتفه الأسباب ويؤذيها بكلام مُنْحط ولا يعرف ثقافة الاعتذار.

باختصار ... كان بني آدم زبالة!

وكانت راضية!

وفي ليلة أخيرة؛ جاء الفرج الإلهي. فقد كانت تكلمه على هاتفه المحمول، ثم أنهيا المكالمة. ولسبب ما - وعلى طريقة فيلم سهر الليالي - نسي صاحبنا أن يضغط زر إنهاء الاتصال. وللسبب ذاته؛ لم تخلع هي سماعة الموبايل من أذنها؛ لتستمع إليه وهو يعاكس فتاة مومس في الشارع بأقبح الألفاظ، ويفتح لها باب سيارته؛ كي تركب.

أصيبت بانهيار عصبي حاد، ونقلوها على المستشفى.

ولم تره مرة أخرى ...

وكلما تذكَّرته الآن، ابتسمت ... فقد كان هاتفه المحمول هو آخر هداياها له.

وكان خلاصها منه هو آخر هداياه لها !

ما تربَّاش خمس دقايق على بعض![45]

عريس هاي كلاس. نيڤووو ما حصلش. فلوس إيه. تعليم إيه. فيلا إيه. عربية إيه. عريس معدِّي.

هكذا قالوا لها قبل أن تقابله في مبنى الليدو بنادي الجزيرة، فهي الأخرى بنت ناس وحلوة وتستاهل حد جامد.

استغرقت القعدة معه ساعة ونصف الساعة، أو بتعداد رقمي خاص: 18 خمس دقائق!

ولم تنجح أي خمس دقائق من الـ 18 المذكورين في المرور بسلام،

(45) أستعير هذا العنوان من رواية To Each Her Own للكاتبة الشابة إنجي عمرو.

دون أن يترك العريس عروسته مبحلقًا في مايوه حريمي طالع أو نازل في البيسين الملاصق لجلسة الليدو.

لم تتمكن أي خمس دقائق من الصمود، دون أن تُلْوَح وتُلْوَى رقبة العريس وراء ديكولتيه مفتوح أو بادي أو جونلة قصيرة.

لم تفلح أي خمس دقائق في الانقضاء؛ دون أن يرفع نظارته الشمس من فوق عينيه الثعلبيتين بحثًا عن مصدر الضحكة العالية أو الصوت الحريمي الناعم الذي تناهى إلى أسماعه.

وفي الدقيقة الأولى من الخمس دقائق التاسعة عشر؛ استأذن العريس في القيام؛ بحُجَّة إجراء مكالمة مستعجلة، ولمحته ذاهبًا خلف شورت ساخن مار في طريقه إلى مطعم البرجولا.

وعندما عاد؛ في بداية الخمس دقائق الحادية والعشرين ... كانت هي قد وصلت بيتها بسلامة الله ... منذ خمس دقائق!

ليها عوزة عندنا !

زارها وأسرته في البيت ...

فقد عقد أبوه وأمه العزم على حتمية الانتهاء من أمر زواجه هو وأخيه خلال هذا العام. استقبلهم أبوها في الصالون؛ مُرَحِّبًا بهم ومُشيدًا بطيب أصلهم وكرم أخلاقهم. وبعد دقائق؛ جاءت العروس الخجول لتقدِّم الشاي والكيك في طقس مصري معتاد. طالت الجلسة حتى انتصف الليل، وكان والداه في غاية الحماس والتأييد للمضي في الموضوع؛ غير أنهما فوجئا - أثناء رحلة العودة إلى البيت - بابنهما يبدي فتورًا كبيرًا حيال العروس؛ مؤكدًا أنه لم يشعر

بالكيمياء اللازمة لإتمام الارتباط.

شعرت الأم بخيبة أمل كبيرة، لكنها لم تيأس من الظفر بهذه العروس الممتازة شكلاً وخُلقًا وأسرةً. فلم تكد شمس صباح اليوم التالي تشرق؛ حتى سارعت بالاتصال بأم العروس مباشرة. وبعد عبارات المجاملة المعتادة؛ بدأت تشكر في العروس بحرارة صادقة، ثم قالت لأمها: شوفي بقا يا حبيبتي. إحنا مش هنسيب عروستنا الحلوة تفلت من إيدينا. الحقيقة هشام فاجئنا إنه عايز يستنى شوية على موضوع الجواز ده. وبصراحة بقا أنا وأبوه مستعجلين جدًا. إيه رأيك نيجي نزوركم تاني آخر الأسبوع ومعانا ضياء؟ ... سكتت الأم للحظات، ثم قالت في ترحاب مفتعل: أوي أوي يا حبيبتي تآنسوا وتنوروا، بس ضياء مين؟ ... قالت في سرعة ممزوجة بالدهشة والاستنكار: ضيااااء! جرى إيه، معقولة مش عارفة ضياء. ده أخو هشام الصغير!

عايزين رأيي: بلاها نادية ... وبلاها سوسو!

إنت تبني وأنا أبني!

فَهُمْ كثيرٌ ... ولكن لا شيء نعرف عنهم!

يأتي الواحد منهم على الصالون، يشرب العصير ويأكل الجاتوه، ويقدِّم نفسه وأسرته، ويتحدث عن عمله المرموق وإمكاناته الكبيرة؛ مؤكدًا أن العروس جوَّه عينيه.

ثم تمر الأيام ...

وينتقل الواحد منهم من الصالون إلى السُّفرة، يتناول الغداء

ويحلِّي بالفاكهة، ويجيب عن سؤال خاص بالشقة، فيقول وهو يستخرج قشرة تفاحة أمريكاني حمراء من بين ضروسه: "آه يا طنط. إحنا بنبني". تسأله طنط: "بتبنوا إيه وفين يا حبيبي؟"، يرد بعد أن يدس القشرة الحمراء في منديل أبيض انتزعه من علبة المناديل الذهبية الموضوعة في الركن: "عندنا حتة أرض يا طنط في التجمع. رمينا الأساس وربنا يسهل" .. تعود طنط إلى السؤال، وقد استشعرت القلق: "ربنا يسهل يا ابني. بس على بال ما تبنوا، ناويين تسكنوا فين يعني؟". يجيب أثناء انشغاله بالبحث عن بذرة جوافة تائهة في حِجْر بنطلونه: "والله يا طنط. يا إمَّا نأجَّر قانون جديد تلات أربع سنين كده لحد ما نبني، يا إمَّا نقعد مع ماما مؤقتًا. وطبعًا حضرتك عارفة ماما بتحب رانده قد إيه".

فإذا ما وافقت طنط أم رانده على ما يقوله خطيب رانده. فسوف ينتهي مصير رانده على النحو التالي: تتلقى رانده شبكة بخسة الثمن؛ لأن أموال عريس رانده كلها ضائعة في البناء. وتتلقى مهرًا زهيدًا؛ لأن الشقة التي سوف يتم فرشها لا وجود لها بعد. فتوفيرًا للنفقات؛ تستضيفهما حماة رانده لديها في بيتها حيث تعيش وحيدة؛ بعد زواج ابنتها الكبرى وسفرها للخليج، ووفاة زوجها منذ سنوات. تدخل رانده على عفش قديم، وكل ما يُجَدَّد هو وش نضافة لحجرة زوج رانده وتحويلها من حجرة شاب أعزب إلى أوضة نوم عرايس؛ تلك التي قامت رانده وأهلها بشرائها. تحمل رانده وتنجب. ولأن نفقات الحياة تزداد توحشًا، فإن رانده تخرج إلى سوق العمل وتترك طفلها الأول ثم الثاني في رعاية حماتها بالبيت. وتمر السنوات، ولا تملك رانده في بيتها سوى سرير ودولاب وطقم كوبايات كريستال

ومضرب كهربائي لصعق الناموس. ولا تستطيع رانده أن تجلس على حريتها بقميص نوم، أو تبدو غير مُهندمة لأنها ضيفة، ولأن ضيوفًا آخرين قد يهبطون من السماء فجأة لزيارة صاحبة الشقة.

آآآه ... تسألون عن قطعة الأرض، وعن البناء، وعن المهر الذي لم يُدفع، والشبكة التي لا تليق ...

ده الناس دي عليها حاجات يا أخي!

وعلى رأي محمد منير: أقول لك فيه، تلاقي مفيش!

وبعد ..

فإنهم قديمًا نصحوا الرجل، فقالوا: لكي تختار صديقًا ارتفع درجة، ولكي تختار زوجة اهبط درجة.

واليوم؛ وفي هذه السطور البائسة من الفصل الأخير من الكتاب الماثل أمامكم؛ أظن من العيب جدًّا أن أراهم ينصحون الرجل بالهبوط درجة للظفر بزوجة، دون أن أدلو بدلوي في هذا الأمر.

عزيزتي البنت المصرية:

أخشى أنني سأخذلك الآن. ولن أشفي غليلك بأن أهزأ بتلك الدرجة المطلوب هبوطها من الرجل؛ في الوقت الذي تنزل فيه المرأة إلى بير السلم ويهبط سقف طموحاتها إلى بدروم الرضا بالقسمة والنصيب.

لكنني لن أمشي وأتركك دون هذه العبارة الأخيرة:

إن الزواج هو معادلة حسابية تقول: جذر س X جذر س= س. وهو حسبة اجتماعية مؤدَّاها أن اكتمال عناصر نجاح العلاقة بين الرجل

والمرأة، يستلزم بالضرورة التعاون الثنائي، التنازل المتبادل، التضحية من الطرفين، التفاهم والتفهُّم، والحرص على مشاعر الآخر. وليس المقصود بالمفهوم الرقمي للحساب أن يكون الطرفان مُتماثليْن كي يحظيا بالنجاح، وإنما أن يكونا متكافئين بلا أفضلية لأحد على آخر، أي بلُغة الحساب كذلك: أن يتعامل الاثنان بمنطق التكامل، لا بمنطق التفاضل!

ربنا يوفقك يا عزيزتي! وسأحاول إقناع الناشر بأن أضع إيميلي هنا في مكان ما في الكتاب.

فإذا ما قرأتِ الكتاب، وإذا ما نفخ الله في صورة رجالتنا العوانس، وطلَّق أحدهم العنوسة على يديك، افتكريني برسالة، تطمئنيني فيها على مستقبل هذا البلد.

ولا زلت أذكر أيام ذروة الأزمة المالية العالمية - في أكتوبر 2008 - أنني كنت في زيارة لقناة السويس، ووقفت على الضفة؛ أقوم بإحصاء عدد السفن المارة من البحر المتوسط إلى الأحمر وبالعكس. وكلما مرَّت سفينة، أصفق كالأطفال. فدَخْل مصر قد زاد بمقدار رسوم عبور سفينة!

ومن اليوم؛ سأقف على شاطئ الزواج في بلدنا، وكلما مرَّت مركب عروسين، سألوِّح لها سعيدًا.

وابقوا ردوا ... السلام!

و... سلام!

Email: shady_salam@yahoo.com
Facebook: Shady Abdel salam - Egyptian Writer

المصادر

- إنجي عمرو – To Each Her Own
دار سراي للنشر، الطبعة الأولى 2010
- أنيس منصور – قالوا
نهضة مصر، الطبعة الخامسة 2005
- د. جابر عصفور – نقد ثقافة التخلف
دار الشروق، 2009
- د. جان كهن، د. جاكلين كان، د.كريستيان فيردو – موسوعة الحياة الجنسية
دار الفراشة، الطبعة الأولى 2005
- جمال البنا – المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء
دار الشروق، الطبعة الأولى 2008
- د. خليل فاضل – الجنس .. أزواج وزوجات وأمور أخرى
منشورات خليل فاضل، الطبعة الأولى 2009
- رمزي المنياوي – لماذا يهرب الرجل من الزوجة إلى العشيقة ؟!
دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2010
- د. روحي البعلبكي – معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة
دار العلم للملايين، الطبعة الثانية 2000
- سابرا إي. بروك – Men Head East، Women Turn Right
مكتبة جرير، الطبعة الأولى 2006
- د. سامية الساعاتي – المرأة والمجتمع المعاصر
الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006
- سحر عمار، شيماء قدري، وأخريات – مكانة المرأة في المجتمع المصري
مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، 2010
- د. سعاد صالح – قضايا المرأة المعاصرة
مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2008
- سيد صديق عبد الفتاح – موسوعة الحب في الشرق والغرب
دار اقرأ، الطبعة الأولى 1984
- شريف الشوباشي – ثورة المرأة

مركز الأهرام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009
- د. عائض القرني – أسعد امرأة في العالم
مكتبة العبيكان، الطبعة الثامنة 2007
- د. عائض القرني – حتى تكون أسعد الناس
دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2000
- د.عائض القرني – لا تحزن
مكتبة العبيكان، الطبعة الرابعة 2004
- عبد الحليم أبو شقة – تحرير المرأة في عصر الرسالة، 6 أجزاء
دار القلم، الطبعة الثامنة 2010
- فتحي فوزي عبد المعطي – أمهات في حياة الرسول
نهضة مصر، الطبعة الأولى 2007
- قاسم أمين – الأعمال الكاملة
دار الشروق، الطبعة الثالثة 2006، تقديم: د. محمد عمارة
- د. لايس وليزلي باروت – I love you more
مكتبة جرير، الطبعة الأولى 2008
- الشيخ محمد الغزالي – قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة
دار الشروق، الطبعة الرابعة 1992
- الشيخ محمد عبده – الأعمال الكاملة، 5 أجزاء
دار الشروق، الطبعة الثانية 2006
- د. محمد عمارة – التحرير الإسلامي للمرأة .. الرد على شبهات الغلاة
دار الشروق، الطبعة الثانية 2002
- منير عبود – موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية
شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 2007
- نجلاء محفوظ – أفكّر في الطلاق
الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 2009
- د. يوسف القرضاوي – مركز المرأة في الحياة الإسلامية
مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة 2010

الفهرس

إهداء	5
برغم كل شيء	6
تحرير المرأة .. والرجل .. والقرد!	9
لماذا لا يتزوج الرجال في مصر؟	29
قالوا .. وقلنا!	49
نصائح ناصحة!!	63
كيف تخون زوجتك؟	65
كيف تضبطين خيانة زوجك؟	69
كيف تقيسين جدية العريس؟	72
قالوا!	77
فسيولوجي .. سوسيولوجي .. سيكولوجي!	87
هو .. وهي!	89
معًا سنتغير!	92
ما فوائد ممارسة الحياة الجنسية في إطار الزواج؟	95
ما أضرار إدمان العادة السرية؟	97
ما حقيقة المُنبِّهات الجنسية المُخدِّرة؟	98
ما التداعيات الصحية المترتبة على تأخُّر الزواج؟	101
لماذا تفشل الزيجات سريعًا؟	102
معجزات الزواج السعيد!	113
قلنا!	119
لا حول ولا قوة إلا بالله!	129
يا صبر أيوب ... وزوجته أيضًا!	131
هذا رجل!	134
الجدال في سبيل الله!	139
بميت راجل!	152
سعيد وسعيدة!	157
هلوسة!	160
المهر يرحمكم الله!	162
على هامش العمرة	166
الختان ... سامحكم الله!	170
بَكَّار .. وبَكَارة!	172
رمرمة!	174
زواج وطلاق وما بينهما!	177
فرْكش!!	185
شَارِعَ الحب!	187
عدالة عوراء!	188
من غُلْبَها!	190
آنيتا وابنتها!	191
يستاهل!	192
مش من مستوايا!	193
أنزوح أفندي!	194
يعني إيه لاتيه!	194
إسكندرية رايح جاي!	195
ده كلام؟!	196
وانقفلت السكة!	197
ماتربَّاش خمس دقايق على بعض!	198
ليها عوزة عندنا!	199
إنت تبني وأنا أبني!	200
المصادر	204